أنستازيا

أنستازيا

" مجموعة قصصية "

اسم الكاتب: مرام بشير صدقي
تدقيق لغوي: محمد ربيع
تصميم الغلاف: محمد علي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
رقم الإيداع: ٣٧٩٧ / ٢٠١٨

١١٤ عمارات جنوب الأحياء – مدينة السادس من أكتوبر
موبايل و واتس : ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،
أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍّ من الناشر؛
يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

أُنستازيا

" مجموعة قصصية "

مرام بشير صدقي

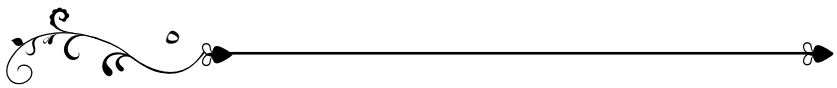

الإهداء

إلى.. فؤاد نصر الدين
الذي نثر بذورَ الورد،
ورحل قبل موسم الحصاد!

مـــرام

شكر وعرفان

إلى أمي... التي لا تذبل حكاياها في الذاكرة!

إلى أبي... ينبوع الأمل الذي لا تَنْضُبُ عطاياه!

إلى الكتّاب المبدعين الذين يعزفون الحياة على أوتار الكلمات:

أ. أحمد الجيزاوي أ. مصطفى عوض أ. عماد عسكر

وإلى كل أعضاء لغتي الخالدة والقائمين عليها.

رائحة الوَرْد

"لا بُدَّ أنه حزينٌ جدًّا لدرجةٍ لا يقوى معها على البكاء!".

قالها أحد المُتَحَلِّقينَ حول جَسَدٍ مُتْعَبٍ انتظرت الرُّوْحُ طويلا لتتحررَ منه، زَمَّتْ سيدةٌ شفتيها فيما كان شابٌ يافعٌ يغادر الحجرةَ متجها ناحية كرسيٍّ خشبيٍّ تم تغييرُ قاعدتِه مراتٍ عديدةً وَظَلَّتْ أرجلُه تُقاوِمُ الزمن، جلس بإعياء تاركًا خلفه الهَمْزَ واللَمْز، جاءه صوتٌ من الداخل: "يبدو أن سَفَرَهُ للخارج قد انتزع منه عواطفه!"... وقف ثم سحب الكرسيَّ ووضعه إلى جوارِ النافذة، لَمَحَ وُرَيْقاتِ وردةٍ ذابلةٍ فأمسكها بِرِفْقٍ خشيةَ أن تتفتّت بين أصابعه، قَرَّبَها من أنفه، أخذ نَفَسًا عميقًا ثم زَفَرَهُ بِبُطْء، كرّر ذلك عدة مرات وهو يسترجع مقولةً طالما سمعها منه وهو صغير: "كن كالوردِ إن مات بقيت رائحته!".

أزاح رأسه للوراء، عادت به الذكرى لماضٍ بعيد، رأى والدَه يُغادرُ أحد المنازل مُنزعجًا، يمسك يده بقوة، يلتحف عباءةَ أمنياتٍ مهترئةً وهو يتمتم: "لن أتزوج بعد أمك، لن أسمح لأحد أن يظلمك"، كان يُهَرْوِلُ بسرعة كأنه يهرُب من وحشٍ كاسر، يجر قدمَه اليمنى بصعوبة -لم يستطع أن يمشي يومًا كالأسوياء-، تعثَّر في حجرٍ صغير، سَخِرَ منه الأطفال، تعالت ضحكاتهم، صاح

أحدهم: "ستصبح قدم "حوده الأعرج" السليمة عرجاء أيضا!"؛ أَفْلَتَ يدَه ثم أمسك بقطعة خشبٍ كانت مُلْقاةً على جانب الطريق وراح يُطاردهم بها، عاد من جديد ليُرَبِّتَ على كتف والده ويخبره بلهجةٍ طفوليةٍ بأنه سيصير طبيبًا ويعالج قدمَه؛ احتضنه الأب بشدةٍ، أغرق وجهَه ورأسَه بالقبلات بينما دموعه تُبَلِّلُ شعر الصغير فَتُنبتُ في رأسه أحلامًا سعيدة!

يراه مرة فارسًا على حصان، ومرة ثانيةً جنديا يَذودُ عن الوطن، وكثيرا ما رآه طائرا فَتَعَلَّقَ بجَناحيه وطاف معه الدنيا، رآه قِدِّيسا وساحرا، تَخَيَّلَ أنَّ له لغةً خاصةً يهمسُ بها للكون؛ فتضحكُ الشمسُ ويبتسمُ القمرُ ويحتضنُه النسيمُ بحُب، ها هو يغيب أمام عينيه ولا يستطيع أن يفعل شيئًا، كم هو مؤلمٌ أن تكون عاجزًا أمام الأقدار!

أدار وجهه ناحية الغرفة، اسْتَرَقَ النظر، سَحَقَتْهُ صورةُ الجسدِ المُنْهَكِ والوجهِ الشاحب، ارتعش قلبُه وهو يحتضن بكاءَ الزائرين الذين علا نحيبُهم حين رفع الرجلُ سبابتَه، بعيونٍ زائغةٍ حَمْلَقَ في سَقْفِ الغرفة كأبله، لَمَحَ شَقًّا بدأ في الظهور، فاجأه أحد الجيران، احتضنه بشدة ثم رحل، سَمَحَ لأذنه أن تتعقبَ ثَرْثَرَتَهُمْ بالداخل؛ كانوا يتحدثون عن سقوط والده في بالوعةِ الصرف الصحي التي سُرق غطاؤها في غفلة من المسؤولين، وعن معجزة خروجه منها حيا رغم أن الجُرْحَ في قدمه ظلّ يَنْزِفُ لساعات، ثم عن مرضِه الذي لازمه من يومها.. قال طبيب

الوَحْدَةِ الصحية أن صدره قد تضرر كثيرًا وأنه لا بدّ من بَتْرِ القدم قبل أن تنتشر الغَرْغَرينا، ثم نصحهم بأن يخاطبوا ابنه ليراه قبل أن يُحْتَضَر، وبعد شد وجذب أجمعوا أمرَهم وخاطبوه، احتاج ثلاثة أيام حتى وصل، لام نفسَه على قَبول المِنْحةِ الدراسية، راجع كل ما درسه في كلية الطب ووقف مستسلمًا أمام تصاريف الحياة.

تناهى إلى سمعه صوتُ امرأة تُوَلْوِلُ في الداخل، عاد إلى الغرفة، تأمل وَجْهَ أبيه الباهتَ وعينيه المفتوحتين عن آخرهما؛ أدرك أن الأمر قد انتهى، وضع يده على جبهتِه ثم أنزلها ببطء، قبّل جبينه بصمت بينما تَبارَتْ النسوة في الصُّراخ، حاول أن يبكي لِيَجْلُوَ ذلك الحُزْنَ المُتَرَسِّبَ في قاع قلبه، لكن عينيه أَبَتا أن تمطرا فتسقيا خدَّ والدِه المتعطش للري، انْتَحَى جانبا حتى فَرَغَ جارهم من تغسيله، استطاع أن يُثَبِّتَ يديه جيدا حين حَمَلَ النَّعْش، وأن يُثَبِّتَ قدميه فتتحملَه هو وحزنَه.

عاد إلى بيته، تأمل سقفَ الغرفة، تساءل في نفسه: "متى اتَّسَعَ هذا الصَّدْع؟"، من بعيد سمع صوتَ صافرة يعرفه جيدا، كثيرا ما انتزع يَدَهُ من كفِّ والدِه القابضِ عليه وركض مسابقا الصبيةَ تِجاه صاحب الصافرة، ليكون أول من يشتري كيسًا من الحلوى، تذكر كيف كان يعود به فرحا إلى بطلِه الأوحد الذي يستقبله بابتسامةٍ واسعةٍ وذراعين مفرودين عن آخرهما، أشار إلى البائع فناوله كيسا عبر النافذة، قلّبه بين يديه... أَجْهَشَ بالبكاء!

بَطنُ البَقَرَة

حين غادرتُ قريتي كنت أظن أن الجنوب وحده هو من يعاني التهميشَ والإهمال، لكني تأكدت أن بعض الظن إثمٌ عندما وصلت إلى "بَطْنِ البَقَرَة".. المِنْطَقة التي تم تعييني فيها مدرسًا لمادة اللغة الإنجليزية؛ مكانٌ يخلو من كل الخدمات الأساسية، حتى هواؤه يأتيك مُحَمَّلًا بروائح بَيَّاراتِ الصرف الصحي التي تَطْفَحُ باستمرار، وتستمر لأيام إلى أن يَتَعَطَّفَ أحدُ موظفي البلدية ويُرْسِلَ سيارةً لكَسْحِها، إنه المكانُ الوحيدُ الذي احتفظ فيه الحواوشي بسعره القديمِ جدًّا فهو ما زال يُباعُ بجنيهين فقط للرغيف، هناك تزدهر تجارةُ الهواتفِ الذكيةِ بشكل ملحوظ؛ اعتقدتُ في البداية أنها هواتفُ صينيةٌ نَظَرًا لانخفاض أسعارها ثم اكتشفتُ لاحقا أنها قطعٌ أصليةٌ مسروقة!

كان الوضع مأساويًّا جدا، غير أنني شَعُرْتُ ببعض الراحة حين جهز لي المدير غرفةً مُلْحَقَةً بالمدرسة التي بُنيت بِمِنْحةٍ من دولةٍ شقيقة فبدت قَصْرًا مَشِيْدًا وسط كَوْمَةٍ من القمامة، استطعت بعدها أن أستخدم جهاز الحاسوب وسمح لي بمد وصلة إنترنت من معمل الحاسب الآلي، تأتيني بإشارة

رديئةٌ لكنها كافية على الأقل لجعلي أتواصل مع أصدقائي الجنوبيين على صفحات الفيس بوك.

أديتُ صلاة العشاء، شربت شايا في قهوة "مرسي الشَبَح"، ثم عدت إلى غرفتي، تَصَفَّحْتُ كتابا لعُمَر طاهر كنت قد اشتريتُه من مكتبة القرية قُبَيْلَ مغادرتي، انتبهتُ على صوت امرأة تَسْتَغِيْثُ؛ فتحت الباب، سألتُ صبيًّا عما يحدث فأجاب أن إسماعيل أبو شِفّة "بيتخانق مع مراته".. أغلقتُ الباب بهدوء وكأنني لم أسمع شيئا؛ منذ أن جئت إلى هنا ولا يمر يوم إلا وتحدث معركة بين زوجين تكون ضحيتها في الغالب امرأة.

"حسن أبو صالح" أهدى زوجتَه غُرْزَتَيْنِ في رأسها بعد أن رماها بالشيشة لأنها لا تُجيد "تَسْلِيكها"، "فتح الله" يجلد زوجته كل يوم بالسَّوْطِ تماما كما يجلد الرجل حمارَه ليتحرك، أما "جرجس أبو حنا" فقد قام بقص شعرِها كالرجال مُدَّعِيًا أنها تبدد ماله في الإنفاق على الزينة!

لا أدري أي زينة تلك التي يتحدث عنها وأنا بالكاد ألحظ الفرقَ بين الجنسين عن طريق الملابس وإيشارب صغيرٍ فوق رؤوس السيدات!

عُدْتُ إلى الكتاب المُسَجَّى فوق المكتب، تلاشت رغبتي في القراءة، توقفتُ عند كلمة الغِلاف "المواطن المصري واحد من أذكى ثلاثة مواطنين على سطح الكوكب: الأول: هو إنسان الكهف الذي اختفى

بمحض إرادته من الديناصورات، والثاني: هو إنسان الغاب طويل الناب الذي خرج من الكهف بعد انقراض الديناصورات، والثالث: هو إنسان مصر الذي يخرج من كهفه نهارا، ويصطدم بالديناصورات بحثا عن لقمة العيش، وفي المساء يختبئ في الكهف ليشاهد مباريات المنتخب".. نَدَّتْ عن شفتي ابتسامةٌ خفيفة، قلتُ بصوت خفيض: "وَلِيَضْرِبَ زوجتَه أحيانا!"، ثم أسلمتُ جفني للنوم.

في الصباح كان المدرسون يتضاحكون على امرأة إسماعيل التي نَجَتْ بالأمس من "عَلْقة موت" قال أحدهم: "إسماعيل رجل صعب مغلق الفكر!".

صاح الثاني كمن يدفع عن الرجل تهمة في غيبته: "لقد أَزْعَجَتْهُ بحديثها عن الحذاءِ الذي رأت نفسها تخلعه في المنام، ثم أكملت بقولها: أخشى أن تفسر الرؤيا بموتك!".

قاطعهم الثالث: "لم ينزعج إسماعيل من فكرةِ موته أكثر من انزعاجه من تشبيهه بالحذاء!".

قَهْقَهَ الجالسون عداي، خرجتُ مُغْضَبًا من الحجرة، أفكّر في وضع السيدات هنا؛ لماذا اعتدن الإهانة؟ تربيتُ على أن المرأة مُكَرَّمَةٌ ومُبَجَّلَة؛ لهذا استعصى عليَّ تَقَبُّلُ هذا الوضع، اتجهت من فوري إلى الشيخ "عتمان" إمام المسجد وخادم المقام الكبير؛ رجلٌ لا يُرفضُ له طَلَبٌ، أعتى مجرمي المِنْطَقة يبدو في حضرته كفتاة عذراء، أعلمتُه بِنِيَّتي إطلاقَ جمعيةٍ للنساء المقهورات؛ حاول إثنائي عن ذلك، أخبرني أنهن اعتدن الأمر، وذكَّرني أنني سأرحل عن

هذا المكان عاجلا أو آجلا، ثم ختم كلامه بنصحي ألا أجعل عداوة الرجال تلاحقني.. لكنني تَمَكَّنْتُ من انتزاع موافقته حين أغريتُه بصورةٍ على غِلافِ جريدةٍ رسمية، وأقنعتُه بأنني سأسعى جاهدا لينال عضويةً شرفيةً بمنظمةِ حقوقِ المرأة باعتباره نصيرًا وداعما لها.

في الشهور القليلة التالية كانت هناك نظراتٌ تتعقَّبُني في كل حركة، تم تضييقُ الخِناقِ على النساء بعد أن عَرَفَ الرجالُ نيتَهن في الانضمام للجمعية، انضم الآلاف للصفحة على الفيس بوك، طالب بعض الرجال بفتح جمعية "يا رب خُذْني للرجال المقهورين" وأرسل بعضهم قَصَصًا وصورا جعلتني أحمد الله أنني لا زلتُ عَزَبًا!

إنه اليوم المشهود.. بدأ العمل في مَقَرّ الجمعية منذ الصباح الباكر، حالةُ نشاطٍ غريبةٌ دَبَّتْ في المِنْطَقة، منظماتٌ حقوقيةٌ محليةٌ ودوليةٌ جاءت لتوثيق الحدث، بُنيتْ عدد من دورات المياه وقاعة كبيرة بُلِّطَتْ بالرخام، رُصِفَ الشارع الرئيسي، ربما لهذا كان بعض الرجال مُمْتَنِّيْنَ لي فَحَرَصُوا على ارتداء ملابس نظيفة وشاركوا في تنظيم الكراسي والتأكد من وضعية مكبرات الصوت والكاميرات، غَرَسَ العمال عددًا من أشجار الزينة التي أُرسلت على عهدة المحافظ الشخصية!

توافدت النسوة المُؤسِّساتُ وعلى رأسهن "الست سنية" زوجة "إسماعيل أبو شِقّة" والتي صارت تسكنُ مع أمها بعد أن طُرِدَتْ من

منزلها منذ قرارِها الانضمامَ إلينا، كانت تمشي بهدوء وخلفها السيداتُ في صفٍّ طويل يرتدين ملابسَ باللون الأصفر ويحملن شارةً كُتِبَ عليها: "بطن البقرة".. في مشهد يعيد إلى الذاكرة احتفالاتِ الألعابِ الأولمبيةِ ومونديالِ كأسِ العالم، تَبِعَتْهُم صفوفٌ أخرى بألوان مختلفة كل منها يحمل شارة لِمِنْطقته.

تبرع أحد رجال الأعمال بعمل الدعاية اللازمة لمؤتمر "امرأة العشوائيات الدولي الأول"، كانت هناك لافتة كتب عليها العنوان بالخط العريض: (المرأة بين إشكالية العشوائية وتحديات العَوْلَمة)، وثانية طُبعت عليها صورتي وتحتها كُتِب: "قاسم أمين لم يَمُت"، وثالثة تحمل عنوان بدا مفاجئا لي: (المرأة العشوائية وتَجْرِبَتُها الريادية في الطواجن والملوخية)، وقد كان المؤتمر برعاية منظمة "عشوائيون بلا حدود"، ومنظمة العُزَّاب الأولى "يا ناس يا شركفاية قر"!

ضجت القاعة بالتصفيق بعد كلمة السيد المحافظ الذي حضر بِرُفْقَةِ عددٍ من الحقوقيّين ورجالِ الأعمال الذين أبدوا استعدادهم للتعاون مع الجمعية، تَحَدَّثْتُ عن محاور المؤتمر وأهدافِها وسَمَحْتُ لبعض السيدات أن يروين بدمعاتٍ خَجْلَى قَصَصَهُنَّ المؤلمة، وحين أوشكنا على الخروج بالتوصيات سمعنا صوتَ صُراخٍ قادمٍ من آخر القاعة؛ كان "إسماعيل" قد أمسك زوجته متلبسة بجريمة إفشاء أسرار بيت الزوجية لقناة "مَهِيْضات الجَناح" الفضائية؛ قمتُ مسرعا لأفض الاشتباك، أمسكت بيده قبل أن

تهبط على وجهها وأنا أصرُخ: "دعها تعبر عن رأيها، ارفعوا أيديكم عن امرأة العشوائيات!".

من جديد ضجت القاعة بالتصفيق والصفير، خِلْتُ نفسي وقتها "جيڤارا" أو "مارتن لوثر كينغ"، غير أن المرأة وَكَزَتْني بِكُوْعِها وألقت إليَّ بقنبلة من العيار الثقيل قائلة: "راجل وبِبْرَبّي مراته، تتدخّل بينّا ليه؟!".. ولأنقذ ما تبقى من كرامتي المجروحة ورجولتي المهدورة أمام الشاشات العالمية قلت -بينما هو مستمر في ضربها-: "هذه هي امرأة العشوائيات التي يظهرُ مَعْدِنُها الأصيلُ حين يحاول أحدٌ النيلَ من زوجها؛ قد تتحمل إهانته لها لكنها ترفض أن يُهان!".. توقف عن الضرب فجأة ثم رفع رأسه، بدا أن كلماتي قد راقته، التفتَ إليها ثم قال وهو يَعْدِلُ ملابسَها: "بقولّك أيه يا أم محمود، مش ناوية ترجعي البيت؟".

قالت وهي تُعيد وضع الإيشارب على رأسها: "وما له يا خويا".

كان مساعد المحافظ يمسك بي خشية الوقوع أرضا وأنا أجد السيدات تخرجن في صف طويل، يحملن شارة كتب عليها "بطن البقرة"، تبعتهم صفوف أخرى بألوان مختلفة كل منهم يحمل شارة لِمِنْطَقته.

رسالة

تَسَلَّلَتْ بعضُ أَشِعَّةٍ جامحةٍ من ثَقْبٍ صغير أسفلَ النافذة لِتُمَزِّقَ سِتْرَ عينيه، بدا جسده نحيلا جدا حين رفع الأغطية الملقاة فوقَه، تَمَلْمَلَ في فراشه منزعجا، مسح وجهه بكفيه، تلفت في الحجرة يَمْنةً ويَسْرةً باحثًا عن زوجته، استوى جالسا فوق السرير، فرد ذراعيه عن آخرهما ثم تثاءب معلنًا قطع حبال الصمتِ المُهْتَرِئَة، قال بصوت مسموع فيما يهم بالنزول: "أَصْبَحْنا وَأَصْبَحَ المُلْكُ لله".

خَرَجَ إلى صَحْنِ الدار، قادته رائحةُ الخبز إلي مكانها، امرأةٌ في عَقْدِها الخامس تَفْتَرِشُ الأرضَ بجوار فُرْنٍ صُنِعَ من الطوب اللَبِن، ترتدي ثوبا أسودَ رفعته حتى ركبتيها، ويداها مُلَطَّخَتان بالعجين، ابتسمتْ حين رَأَتْه، قامتْ من مكانها، أَحْضَرَتْ الطَّبْلِيَّةَ* ووضعت عليها ثلاثةَ أرغفةٍ من خبزٍ طازَجٍ وقطعةً من الجُبْن، أمسك بلُقْمَةٍ سرْعانَ ما نَحّاها جانبًا قبل أن تَصِلَ فمَه حين سمع صوتًا يناديه بالخارج؛ قام بتباطُؤ، فتح الباب؛ وجد "عوض"

البوسطجي أمامه، كان "عوض" يَلْهَثُ بشدةٍ حتى خُيِّلَ للرجل أن أحدًا كان يركُض وراءه، مَدَّ رأسه خارج الباب، تأكد أنه ما من مارّة بالشارع، فتساءل مُتَعَجِّبًا عن سبب قدومه في هذا الصباح الباكر؛ أخبره أنه يحمل رسالة له من "محمد"، يَدُهُ المُرْتَجِفَةُ التي امتدت لتختطف الرسالة بلهفة فضحت ما كان يحرص على إخفائه عن أعين الناس، أشاح بوجهه ليواريَ دمعة أفلتتْ من حراسةٍ مُشَدَّدَةٍ فرضها على قلبه أمامهم وكثيرا ما سمح لها بالعَرْبَدَةِ بين جوانحه حين يكون وحيدًا حيث لا هي أسيرة ولا هو سَجَّان!

كادت امرأته أن تطلق زغرودة لولا أن وضع كَفَّهُ فوق فمها طالبا منها أن تَصْبِرَ حتى يَفُضَّ "عوض" الظرفَ؛ فيعرفوا محتواه، كان غِلَافُهُ أبيضَ تفوحُ منه رائحةُ عطرٍ نفاذةٌ، كُتِبَ عليه بلغتين مختلفتين، أمسكتْه زوجتُه فتلوَّثَ بقطعٍ من العجين، سحبه منها بسرعة، وهو يشد على يد "عوض" ليدخل الى ساحة الدار فيقرأ لهم خطابًا تأخر حتى ثَمِلَتْ أوجاعُهم من طول الانتظار، كانت الطَّبْلِيَّةُ ما تزال في مكانها تَقْبَعُ فوقها باستسلام قطعةُ الجبن وأرغفةُ الخبز ولقمةٌ وحيدة، أقسم عليه أن يتناول طعام الإفطار أولا، وطلب منها أن تُعِدَّ كوبين من الشاي، كان قائما فَقَعَدَ على كُرْسِيٍّ خشبي، أناخ رأسه للخلف، تأمل المساحة الفارغة بينه وبين "عوض" الذي بدا مُنْهَمِكًا جدًّا في تناول

الطعام، حَوَّلَ بصره إلى الظرف، رَمَقَهُ بنظرات محمومة، لاذ بصمت حَذِر، بينما يستعيد تفاصيل الحكاية.

كان ذلك منذ خمسة أعوام، حين استطاع "مغاوري" سمسار السفريات، إقناعَ ولدِه الوحيدِ بالسفر إلى إيطاليا، لم تفلح محاولات الأب ولا دموع الأم في إثنائه عن قراره، صرخ فيهما: "أريد أن أَهْرُبَ من هذا الفقر، وأن أكسر قيدَ الذل الذي ترغبان أن تُلبساني إياه، لن أبقى هنا لأرث وظيفتك، لن أكون في النهاية خادما!".. كان مُتَمَرِّدًا لا يهتم لأحد سوى نفسه، سافر بعد أن باع والدُه نصف البيت الذي يملكه، عامان كاملان ماتا فيهما قلقا كل ليلة، وهما لا يعلمان أحيٌّ هو أم ميت، رصيدهم من الوجع أضحى وَشْمًا لا يمكن محوه، حتي سخر الله لهما من أخبرهما أنه تزوج سيدة إيطالية وافتتح مشروعًا تِجاريًّا هناك وطمأنه بأن ابنه سيرسل له في القريب العاجل خطابا يعلمه فيه بكل شيء.

يومٌ مضى وراءه يوم، يستنشِقان هواء الأملِ كل صباح ويَزْفِرانِ قَلَقَ الانتظار كل مساء، وبين الأمل والرجاء يضيع العمر وتذهبُ حلاوةُ الأيام، أفاق من شروده على صوت زوجته تُقَدِّمُ له كوب الشاي، جلست بجواره، أَجْهَشا في صمت لكن نظراتِهما وَشَتْ بألف سؤال، همست الزوجة -التي لم تعد تُطِيقُ صبرا حتى يُنهي "عوض" طعامَه- قائلة: "ليتنا تعلمنا القراءة!"، تابعت بعد أن وضعت يدها فوق كتف زوجها: "ألم أقل لك مرارا أنه لن يَنْسانا أبدا، لا بد أنه كان يمرّ بظروف عسيرة ولم يُرِدْ أن يرهقنا بها".

ثم أمسكت الخطاب، اشتمته، حَنَّتْ عيناها؛ فذرفتا الدمع، اشتاقت أناملها لاحتضانه، وضعته فوق صدرها وقالت برجاء: "عُدْ يا ولدي.. لقد اشتقتك كثيرا!".

كان عوض قد انتهى من طعامه، فتناول كوب الشاي، رشف رَشْفَةً طويلة صاحَبَها صوتٌ عال، ثم وضعه بجواره وفتح الظرف، أخرج منه ورقة مطوية، فَرَدَها جيدا، وقرأ:

"والدي العزيز.. كيف حالك وكيف حال أمي؟، اشتقتكما كثيرا، أعتذر عن تأخري في إرسالِ هذا الخطاب، كانت الأمور تسير معي بشكل سيء لفترة طويلة، لكنها تحسَّنتْ بعد أن تزوجتُ سيدةً إيطاليةً ثَرِيَّةً وعَمِلْتُ معها في مشروع تِجاريٍ ضخم، وأنا الآن أمتلك أموالا كثيرة، زوجتي مُولَعَةٌ بالحضارة المصرية القديمة وهي ترغب في زيارة الأماكن الأثرية، لهذا سأعود إلى مصر الشهر القادم وقد ابتعت منزلا خاصا، تعرفون أن الأجانب يقدسون الاستقلالية؛ سيكون هذا أفضل لكم ولها، حين أصل سأشتري لك فدان أرض عوضًا عما بعتَه لأجلي وسأُرَمّمُ البيت، فقط لي طلب وحيد؛ إن رأيتُماني يوما في طريق وكانت بصحبتي فَتَصَنَّعا عدم معرفتكما بي".

الطَبْلِيَّة: منضدة مستديرة منخفضة يُرَقُّ عليها الخبز، أو يؤكل عليها.

أنِسْتازْيا

كان "حسن" هو العامل الوحيد الذي يُسمح له بعبور كمين الشرطة المُخَوَّلِ به تأمينَ منزل السفير الروسي كلَّ يوم لإحضار القمامة من الداخل وتسليمها لوالده الجالسِ فوق أكياسٍ مُتَكَدِّسةِ على عربته الكارو المتهالكة مثله، يُفرغ حمولةَ يده، ثم ينصرف إلى منزل آخر، وهكذا حتى تنتهي جميع الفلل الموجودة بالحي، فيجوبان الأحياء المجاورة إلى أن تعلن الشمس رحيلها.

و "حسن" شاب تجاوز العشرين بسنتين، أسمرُ البَشَرَةِ نحيف، شعره مُجَعَّدٌ قليلا، ملامحه جميلة وله ابتسامة آسرة هي جواز مروره للقلوب، يوم خرج للعمل مع والده كان ابنَ سبعِ سنين، وضعه والده فوق العربة ثم أمسك بلِجامِ الحمار وسار على قدمه يجرُّها جرا، والصبي مستمتع بحركة العربة واهتزازاتها، سعيدٌ أن قد صار رجلا وستكون له "يومية" بدت قيمتها كبيرةً جدًّا، أوصاه يومها بما لا يمكن لصبي صغير فهمه لكنه كان قادرا على

الاستيعاب والتنفيذ فالصغار في مثل حالته يَكْبَرونَ سريعًا ويَشِيخونَ قبل الأوان.

- يا ولدي... إنك ستدخل بيوتًا ليست كبيوتنا وسترى أشخاصا ليسوا من طِينِنا؛ فلا تتكلم إلا لحاجة، ولا ترفع بصرك إلا لضرورة، لا تشعر بالدُّونِيَّةِ طالما أن عملك شريف، كن فخورا أنك تكسِب رزقك بعرقك، واحذر أن تمد يدك لأحد، كن عفيف النفس يا ولدي!

ربما لهذا حظي "حسن" بمعاملة طيّبة من قبل أرباب البيوت، بمرور الوقت صار من الطبيعي أن يلقي عليه سفراءُ الدول المقيمون بالمِنْطَقةِ وأسرُهم التحيةَ بل وأحيانا يتبادل بعضهم معه حوارا قصيرا.

رحل السفيرُ الروسي وأسرتُه إلى بلادهم وحل محله سفير آخر، يشعر "حسن" بالقلق في كل مرة يتعرف فيها على طاقِمِ حراسةٍ جديدٍ، يرتاح قليلا بعد تفتيشه والسماح له بالدخول، وأمام كل منزل تَطَؤُهُ قدمُه للمرة الأولى، يتذكر والده ويسترجع وصاياه، تفتح الخادمة باب القصر، تنساب ألحانٌ عذبة إليه ومع ارتفاع الصوت تُجبرُه أذنُه على تحريكِ عينيه في أرجاء المكان ليجد قُبالته فتاةً بيضاءَ كثلج بلادها، شعرُها شلّالاتُ ذهب تنبُع من رأسها لتَصُبَّ عند ركبتيها، وقف ثابتا كصخرة على شاطئ بحر لا يُعنيها ما يحدث حولها ولا تهتم باصطدام الأمواج التي تنهزم أمام صلابتها فتعود أدراجها خائبة، نادته الخادمة:

أنت !

التفتتْ الفتاة تِجاهه حين قطع الصوتُ النَّشَازُ نغماتِها الحالمةَ، اصطدمت أمواجُ عيونها بصخرته الصماء فتشققت وَبَلَّلَها الموج، شَعُرَ بالارتواء بعد طول ظمأ، تائه لسنوات في عرض الحياة وجد في عينيها جزيرة تحتضن خوفه وتُرَبِّتُ على قلبه الذي يختبر أنفاسا تتلاحق ونبضات تتسارع مُحْدِثةً ألما خَفِيًّا ولذيذا، هل يُعْقَلُ أن يتوقف الكون للحظة حين تتلاقى نظرتان؟!

- أنت.. لماذا تقف هكذا!؟

- ما اسمها؟

- ليس من شأنك.

- هل يمنعونك من النطق باسمها، هل هو سر حربي؟!

- أعطيتُك القمامة فانصرف.

- أريد أن أعرف اسمها فقط وأعدك أنني سأنصرف فورا... أرجوك!

- اسمها "أَنِسْتازْيا"... هيا احمل الأكياس وانصرف... هيا.

كَرَّرَ الاسمَ عدة مرات ليتأكد من حفظه، فاته أن الرَّابِضَ بين ضلوعه قد اختار تلك الساكنة في السماء السابعة من بين نساء الكون لتكون حبيبته!

أَدْمَنَ عامًا ابتسامتَها، لم يُفَوِّتْ يوما واحدا إلا ورآها، حين يَمْرَضُ يسعى إليها مُرْتَعِشًا لينال جَرعته، يعلم أنه لو لم يذهب فستضربه عاصفة الحنين ويصاب باعتلال مزاجي حاد، هو المنفي على أعتاب حبها ينسى

الوصايا ويجول ببصره في كل اتجاه، عَلَّهُ يُمْنَحُ جَرعته فيستكين قليلا قبل أن تعاوده تباريحُ الشوق فَتَقُضُّ مَضْجَعَهُ، فما بالها اليوم تريد أن تزيد تعلقه بها، وكيف طاوعته يدُه الخَشِنَةُ أن تخدش حرير يدها؟! بل كيف قَرَّرَ الحرير أن يصافح الخشونة في مشهد يستحيل تجانسه؟! ربما لهذا تكمن روعة الحب... لا قواعد ولا منطق.

رحل من منزلها صامتا ذاهلا لم يجد في نفسه قوة للمرور ببقية المنازل، فجَرعة اليوم كادت أن تُوقفَ قلبَه، رآه صديق طفولته " أشرف" -الذي يعمل صبيا بالمقهى المجاور لمنزله- عائدا في وقت باكر، رَكَضَ ناحيته ليطمئن أنه وأفراد أسرته بخير، ثم انتحى به جانبا عندما أحس أن ثَّمَة أمرٌ جَلَلٌ قد حدث.. شعر أن الأرض تهتز تحت قدميه كزلزال، فما سمعه لا يمكن أن يقال من رجل عاقل!

- أَحْمَقُ أنت يا "حسن".. ألم تجد سوى ابنةِ السفير تقدم لها قلبك البَتولَ لَتَنْهَشَهُ حيا؛ عامل قمامة يحب ابنة سفير.. كيف؟!... ابتعد عنها، أرجوك، من أجل أمك وإخوتك الذين صاروا أمانة في عنقك بعد موت أبيك، حبك نهايته ندم، والعشق يا صديقي تِيْهٌ ونفيٌ في عوالم جديدة لم تَخْطُها من قبل، ابتعد قبل أن تعلم بما يدور في خَلَدِك.

- أظنها علمتْ، تبتسم لي كلما رأتني ثم ترفع يدها لتحيتي، أحيانا تقترب مني وتقول بعربية ركيكة: "مرحبا حسن".. أتدري أنها بالأمس قدمت لي قطعة من الشيكولاتة الفاخرة، واليوم صافحتني!

حانت من "أشرف" نظرة استنكار!

- صافحتك! صافحت يدك التي تحمل القمامة طوال النهار؟!

- نعم... صافحتني ثم قالت لي أن صحتي لا تعجبها وأن عليَّ إجراء عدد من التحاليل، تخيل.. لقد أعطتني رقم طبيب باطني شهير وحجزت لي موعدا لمقابلته، إنها لا تراني عامل قمامة؛ هي تعرف أني حاصل على شهادة جامعية وأنني أنتمي لأسرة عريقة، ولولا أحوالُ البلادِ الاقتصاديةُ ومرض أمي العُضالُ لتغير الحال، الناس في بلادهم يزِنون الأمور بمقاييس أخرى، لهذا أنا أصدق أنها تحبني!

- بل هي تُشْفِقُ عليك، مرآةُ الحب أَعْمَتْ قلبَك، واحتياجُك للأمان والدفء جعلاك تتخيل ما لا يستقيم حدوثه، أحلامك ستتبدّد وتتبخّر مهما طال عمرها، وقد يحوّلك حبُّك المُشَوَّهُ إلى دُمْيةٍ مسلوبةِ الإرادة؛ فابتُر قلبك عن لقائها لتنجو.

- أَبْتُرُ قلبي عن نبضِه وأحرم عيني رؤيتَها، لكأنك تقول لي: ابتُر حياتك واحْيَ مَيْتًا.

- حسنا... سأعود إلى عملي الآن، أراك لاحقا، انتبه لنفسك.

في البنك عاونه أحدُ الموظفين في عدِّ المال بعد أن أخذ منه الشيك، قال مؤكدا: "عشرون ألف جنيه بالتمام والكمال".. ابتسم "حسن" في صمت، كانت بانتظاره سيارةٌ أوصلتْه إلى منزله، دخل غرفتَه مُتَأَبِّطًا لِفَافةً صغيرة، تألّم حين حاول رفع مرتبة السرير ليضع أسفلها لِفَافتَهُ، رفع رأسه

لأعلى، تأمل السقف المغطى بجذوع النخل، والجدران المشقوقة.. تذكر أخاه الأصغر؛ هو بحاجة لعملية عاجلة قبل أن يتلاشى بصره، أمه تعاني آلاما مبرحة كل ليلة لا يسكنها سوى قرص "ترامادول" والصبية الذين يبيعونه صاروا يبالغون في الثمن، تنهّد بعمق ثم ترحم على والده الذي لم يُوَرِّثْهُ سوى اسمِه واسمِ عائلةٍ صارت جَرَّاء الفقر في الغابرين، وضع يدَه على الشَقِّ الموجود بجانب ظهره ثم تحرك خارجا من الغرفة، كانت "ابتسام" قد عقدت فوق رأسها إيشاربا انفلتت منه خصلات سوداء متفحمة، وانهمكت في كنس المنزل، فتحت الباب المؤدي إلى الشارع فأصدر صريرَه المعتاد، أزاحت ما جمعته من أتربة خارجه ثم أسندت المِكْنَسَةَ إلى الحائط!

- زارنا "سعد" اليوم وأخبر أمي أنه انتهى من تجهيز منزل الزوجية.

طأطأتْ رأسَها فيما كانت تحرك قدمها باهتزازات متتابعة تنم عن التوتر والحرج!

- لا أريد أن أثقل عليك لكنني لم أنته بعد من احتياجاتي كعروس... أنا آسفة.

اقترب منها، رَبَّتَ على كتفها ثم قال بحُنُوٍّ:

- أعرف أنك انتظرت طويلا.... اطمئني قريبا ستكونين ببيت!

لم يكن قادرا على تحمل تلك السعادة التي اعْتَرَتْهُ، حين هَمَسَتْ له بموعد للقاء، طلب من أمه تسخين مياه كافية لاستحمامه، ارتدى قميصا

وبنطلونا أخذهما من "سيد" المكوجي مقابل مبلغ زهيد دفعه كإيجار ليوم واحد، مَشَطَ شعره وارتدى حذاء أسود كان قد أعطاه له السفير السابق فاحتفظ به لسنوات ولم يكن ينتعله سوى في المناسبات المهمة.. سمحت له "أَنِسْتازْيا" أن يجلس بجوارها في الخلف وأمرت السائق أن يغادر السيارة ويبتعد، ازداد تَعَرُّقُهُ وهو يتأمل لوحة وجهها البديعة.

- صديقتي الأمريكية "مادونا" تشكرك كثيرا على تبرعك بالكُلْية، وأنا أيضا أشكرك لأنك أنقذتَها من موت محقق.

- لا شكر على واجب، أردت إهداءها قربانا لعينيك لأمنعهما البكاء حزنا على صديقتك، لولا إصرارك ما قبلتُ أخذ الثمن.

- بالمناسبة لقد أرسلتْ لك خمسة آلاف لتكمل هديتك.

قالتها والتصقت به ثم وضعتْ رأسها فوق صدره وبدأت في البكاء!

- إنها تعاني منذ إجراء العملية، يقول الأطباء أنها بحاجة لبضعة أكياس من الدم كل شهر، ويقولون أيضا أن فصيلة دمك أصيلة تتوافق مع جميع الفصائل الأخرى... ما رأيك يا حبيبي؛ هل ستمنحها دمك من أجلي؟

في حديقة قصرها المنيف جلست "أَنِسْتازْيا" تحتسي فِنْجان قهوة مع قطعة من الشيكولاتة المُرَّة، سألتْ الخادمة عن "حسن"؛ فأخبرتها أنه لم يأت منذ يومين، رشفت من فِنْجانها رشفة أتبعتها بابتسامة تهكم.. أمسكت بهاتفها.. أجرت مكالمة مع الطبيب ثم حادثت حسن، أخبرها بصوت مُتَهَدِّجٍ أن

"حسن" في المستشفى وأنه يشعر باقتراب الأجل ويحلُم بأن تطل عليه بعينيها.. تصنعت الحزن والبكاء.

- كنت أود أن أطل بعيني عليك غير أن الطبيب أخبرني أنهما أوشكا على العمى، من أين لي بمتبرع يمنحني إحدى عينيه لأراك؟!

أغلقتْ الهاتف، أكملت شرب فِنْجانها، نظرت إلى إحدى الحَرَسِ الواقفين بجوار السور، اصطدمت عينيه بعينها... ابْتَسَمَتْ!

جريمة

ابتسم حين رأى صورته المنعكسةَ في المرآة، حَرَّكَ رِبْطَةَ عُنُقِه يَمْنةً ويَسْرةً، أغلق زر الجاكت، خرج من غرفة النوم تِجاه غرفةِ المعيشة، كانت زوجته تبكي بشدة، سألها عن السبب، نادت الخادمةَ لتحضر لها دواءَ الضغط، تَصَنَّعَ الاهتمام، من جديد سألها عن سر دموعها؛ فأخبرته أن ابنها يُهَدِّدُها بمقاطعتها في حال بقيت في عصمته وأنه أقسم أن يقتلها إن حاولت التنازل عن أحد ممتلكاتها لزوجها، كَظَمَ الزوجُ غيظَه، قَبَّلَ يدها، طمأنها أنه بجوارها ولن يسمح لأحد بأذيَّتها، استأذن بالانصراف، في طريقه للخروج غَمَزَتْ له الخادمة، ابتسم... اقتربت منه ثم قالت:

متى سَتَفِيْ بوعدك ويكون زواجنا شرعيا؟

- قريبا جدا.. اطمئني.

- ما عدتُ أقوى على خدمة هذه العجوز!

- تحمَّلي قليلا، لم يتبقَّ سوى القليل... القليل فقط.

هذا هو اليوم الذي انتظره طويلا، الحُلْمُ الذي باع من أجله نفسَه، ودَفَنَ شبابَه في قبر امرأة تماثل أُمَّهُ سنا، اليوم يصافح السفيرَ بيده، ويلتفُّ

حوله المحافظ والوزير، كلهم سيشاركونه فرحته بتدشين المصنع الأول من نوعه في الشرق الأوسط، التُقِطَتْ له عشراتُ الصور، حَلَّ ضيفًا على الكثير من البرامج التلفزيونية ووصفه الإعلام بالمستثمر الوطني المخلص، كانت الساعة قد جاوزتْ الواحدة ظهرًا حين انتهت جولة الافتتاح، فَكَّرَ أن يعود إلى المنزل ليرتاح قليلا قبل أن يخرج مجددا للقاء من قابلهم صباحا على مَأْدُبَةِ عشاء، لولا أن أبلغته مديرة أعماله بضرورة العودة إلى المكتب لحضور اجتماع مهم كان قد نسيه في زمرة انشغاله، اتصل على زوجته ثم طلب من سكرتيرته منعَ المقابلات حتى ينتهي من طعامه.

- أنا لا أصدق أن ابنها نَفَّذَ تهديده وقتلها!

قالها وهو يغالب دموعه ثم أكمل:

حادثتُها في الثانية ظهرا وأخبرتُها أنني لن أستطيع العودة إلى المنزل قبل منتصف الليل، كان لدي اجتماع في الثالثة ثم عشاء عملٍ على شرف سفير فرنسا، وحين عدتُ عرفتُ ما حدث.

- أنت هنا تشير إلى ابنها فقط.. لماذا استبعدتَ الخادمة؟

- الخادمة يا سيدي تأتي في التاسعة صباحا ثم تغادر في الواحدة ظهرا، كانت أمها تعمل عند زوجتي -رحمها الله- ثم عملت ابنتها من بعدها... هي خادمة أمينة ومخلصة يستحيل أن تفعلها.

أغلق المُحَقِّقُ المحضر وسمح له بالانصراف ثم أمر باستدعاء بَوَّاب العمارة، والخادمة، والابن للتحقيق.

- نعم، قتلتُها!

- لماذا؟ ومتى؟ وكيف؟

- سأعترف بكل ما حدث؛ كانت الساعة تقترب من الثانية حين هاتفتُ زوجتي وأخبرتني أنها تريد الطلاق حتي لا تخسر ابنها، أبديت تفهمي لموقفها ووافقت على طلبها بشرط أن تتنازلَ عن المصنع والمنزل والسيارة، لكنها رفضت وألمحت بأنها تملك مقطع فيديو ضِدِّي في حال حاولتُ التلاعب، جن جنوني وأنا أكتشف وجها جديدا لم أعرفه من قبل، كانت بالطبع تتحدث عن الرشوة التي قدمتها لأحد مسؤولي الدولة، هي من طلبتْ مني تسجيلَ المقطع للضغط على المسؤول أو ابتزازه لاحقا، خطرت لي فكرة التخلص منها، طلبت من السكرتيرة أن لا تسمح لأحد بالدخول حتى أنتهي من تناول طعامي، ثم تسللتُ إلى المنور ومنه إلى الشارع الخلفي، اسْتَقْلَلْتُ سيارة أجرة إلى منزلي، كانت الخادمة قد غادرت، وكانت هي في غرفة النوم، أحسستُ أنني أختنق فخلعت الجاكت ثم رِبْطَةَ العنق والحذاء.. اقتربت بهدوء منها، باغتُّها وأطبقتُ على رقبتها حتى سقطت على الأرض، ارتديتُ ملابسي وانصرفت، عدتُ إلى المكتب من نفس الطريق الذي خرجت منه... لم أتوقّع أن يكتشف أحدٌ خروجي، كنت متيقظا جدا وحذرا في كل خطوة أخطوها.. لا أدري حتى الآن كيف استطعتم الوصول إلي؟!

ابتسم المُحَقِّقُ، ثم مد يده إلى حافظة كانت أمامه وأخرج منها صورتين... وضعهما بجوار بعضهما وأشار إلى الصورة الأولى ثم قال: "الصورة الأولى التُقطت لك في العاشرة صباحا كنت ترتدي رِبْطة عنق لم تكن موجودة في الصورة الثانية التي التقطت لك في اجتماع الثالثة، لأنك ببساطة نسيتَها في المنزل!".

كاتب

حاولتُ أن أُسْرِعَ قَدْرَ الإمكان، لَعَنْتُ في سِرِّيْ الزحامَ وتأسّفتُ على أموال الدولة التي ضاعت في حملات توعيةِ المجتمع بمخاطر الزيادة السكانية، كانت الساعة قد جاوزت الثالثة والنصف بدقيقتين حينما وجدتُ نفسي أقف مُرْغَمًا بين أَكْداسٍ من البشر أنتظر دوري لركوب المَصْعَد، رفعتُ رأسي لأعلى، تنهدتُ.. لا طاقة لديّ لأصل الدور السابع باستخدام الدَّرَج، اعتراني غضبٌ شديدٌ حين تذكرتُ رئيسي في العمل وهو يقول بِتَشَفٍّ واضح: "لن أمنحك تصريح خروج!".

أخبرتُه بِنِيَّتِيْ التَّوَجُّهِ لتوثيق توكيل المحامي الذي سيترافعُ عنّي، نظرتُ إلى عينيه نظرة استعطاف عَلَّهُ يترفّقُ بحالي ويأذنُ لي بالانصراف، ثم تابعت: "ما ذنبي أن أورثني والدي بيتًا استأجره منذ زمن طويل؟ أين أذهب وأسرتي إن هُجّرنا منه؟"، بدا عليه الضَّيْق، ثم قام من مقامه.. أشعل سيجارة، نَفَثَ دخانها في وجهي، سَعَلَ بشدة ثم قَرَّبَ فمه من أذني، هَمَسَ بصوتٍ أشبه بِفَحيحِ الأفعى: "هل الإيجار القديم جعلك تظن أنك امتلكتَه؟!"، قبل أن

أفتح فمي لأدافع عن نفسي تابع: "إذا أردتَ الخروج من العمل، سأحتسب لك هذا اليوم إجازة".

أيقظني من شرودي التدافعُ الفجائيُ خلفي، لا أدري كيف وجدتُني في الداخل، كنا خمسة أشخاص، رجلٌ ناهز الأربعين، يُزَيّنُ معصمَه بساعة ذهبية وجسدَه ببدلة أنيقة تفوح من بين جنباتها رائحةُ عِطْرٍ قويةٌ، يقف شامخا مرفوع الرأس، فيما يَغِبُّ سيجارتَه - المنتفخة كجيوبه- بتلذُّذ، بدا أنه في طريقه للحصول على ثروة كبيرة؛ ربما سيقابل مسؤولا يمنحه موافقة على بناء قرية سياحية أو ربما يكون مستوردا معروفا أو... لا يَهمّ، المُهِمُّ أنّ أَنْفي المتعلقة برائحته تدعو ألا نَصِلَ أبدا، سَخِرْتُ في نفسي من ملابسي الملطّخة بحبر المطبعة، ومن الرجل الضعيف البِنْيَةِ الذي يقف بجواري، كان يبدو كمن يحمل فوق ظهره سنواته التي عاشها، ثِقْلُهُ شفع له ألا يرفع رأسه للأعلى، لمحتُ في عينيه انكسارا وشى بشرخ كبير في قلبه!

كنتُ سأسأله إن كان يحتاج المساعدة لولا أن اصطدم شيءٌ بذراعي؛ التَفَتُّ، كانت حقيبة الحسناء الواقفة خلفي، أجزم أنها كانت تفكر في طريق سريع لتوقع بقلب الثري، اعترتْني غَيْرةٌ منه، هممتُ أن أقف حاجزا بينهما لأمنع عنها حُلما أخشى أن يدمّرها لاحقا، غير أن المصعد توقف بالطابق الرابع، لينزل العجوز ويحل محله شاب

عشريني مفتولُ العضلات، تعمد الوقوف بيننا، لمحتُ عينيه تتلصّصان على مفاتنها فيما كانت هي مشدوهةً مثلي بالرجل ذي الساعة الذهبية، خِلْتُ وقتها أن الكون كله منحرف إليه، تأملتُ عيونَهم المُعَلَّقَةَ، وَرَثَيْتُ لأرواحهم التي باتتْ تنتظر سقوطا وشيكا.. توقّف المصعد؛ خرجوا يطاردون أحلامَهم، وتوجهتُ أنا لأول موظف.. طلبتُ منه ورقةً بيضاء أطارد عليها حُلمي!

وِحْدَة

على حافة السرير تجلس امرأة في عَقْدِها الثالث تتابع بقلقٍ واضحٍ عقاربَ الساعة، تتحرك ببطء ناحية النافذة، ترمي الشارع بنظرةِ حزن، تتمنى لو أن سيارةً تمر فيمزقُ هديرُها الصمتَ الذي يعم الأرجاء، أو أن السماء تجود بالمطر فيُنْتَهَكُ سِتْرُ السكون الذي يَلُفُّ الكون؛ ففي فراغ هائل من الهدوء تُحدث قطراتُ المطر دَوِيًّا وتحدث عقاربُ الساعةِ المُعَلَّقَةِ على الجِدار ضجيجًا تأتنس به.

"ما أصعبَ أن يفقد الصباح لهفته في الحضور فيبدو ليلُ الشتاء بلا نهاية!".. قالتها وأغلقت النافذة، وقفت أمام المرآة، شدت بطنَها بكلتا يديها للأمام أزعجتها الترهلاتُ التي لم يفلح ثوبُها الفضفاض في إخفائها.. "لو أن "أمجد" هنا لأزعجه هذا المنظر"، -هكذا قالت-، تابعت بعد أن دارت حول نفسها مُحاولةً رؤيةَ عيوب جسدها من جميع الجهات: "ماذا أفعل وقد أكسبني الحمل بِضْعَةَ كيلوغرامات وأورثتني الولادة تلك البطن المترهلة؟".

ابتعدت عن المرآة، عادت للجلوس على حافة السرير، تَأَمَّلَتْ ملاءته البيضاء، مَرَّرَتْ يدها عليها، حدثت نفسها: "هل ما زلتَ تذكرني يا أمجد؟"، أغلقت عينيها لدقائق ثم فتحتهما، قَلَّبَتْ بصرها في الغرفة، كانت مدهونة

بطلاء أبيض، ضَحِكَتْ حين خُيِّلَ لها أنها تسكن البيت الأبيض، حركت رأسها إلى جهة اليمين، كان هناك دفترٌ صغيرٌ وقلمٌ فوق طاولة بيضاء، صاحت: "أنا سيدة الغرفة البيضاء!".

أعجبها تردد الصوت في فضاء الغرفة الشاسع؛ كررت جملتها عدة مرات، استطاعت أن تتناول الدفتر دون أن تكون مضطرة للوقوف، فتحته.. كان فارغا تماما عدا صفحةٍ وحيدة، كُتبت بخطها، استلقت على ظهرها، رفعته بيدها لأعلى وقرأت: "عزيزي حازم، هذه هي الرسالةُ العاشرةُ التي أبعثها إليك دون أن يصلني رد، أنا بخير إذا أردت معرفة حالي و "نورا" بخير أيضا، هل ستصدقني لو أخبرتك أنه رغم مرور كل هذه الأشهر على رحيلك إلا أنني لا زلت أذكر المرة الأولى التي التقيتني فيها؛ كنا في مَمَرّ المحلات التِّجارية، لحظةً عابرة التقت فيها العيون، انخلع قلبي وانجذب إليك، شَعُرْتُ وقتها أن شيئا كان ينقصني قد اكتمل، وقفتُ مشدوهة غير مصدقة أن الملامح التي رسمتُها في مُخَيِّلَتِي ستتجسد يوما، آهٍ يا حازم... كيف أصف لك ما حدث، ربما لو حاولتُ لن أجد في قواميس اللغة كلاما يعبر عن...".

أغلقتْ الدفتر بعصبية، لم تعرف من هو حازم، هل هو حبيبُها أو زوجُها؟ ثم هل أنجبت حقا فتاة تُدعى نورا؟ وضعتْ يدها على جبينها، حاولت أن تتذكر متى كتبتْ هذا... فُتح باب الغرفة، دخلت امرأة ترتدي بالطو أبيض، نظرت ناحيتها وبهدوء قالت: "حان وقت تناول الدواء"!

ضابطُ إيقاع

بدت في آخر ليلة رأيتُها فيها كثمرة ناضجة تُغري بالقِطاف، ابتعدتُ عن مكاني القَصِيّ ووقفتُ بجوارها، ثم أخذني الشَّغَفُ فَرَكَعْتُ على رُكْبتيّ، ووضعتُ الطَّبْلَةَ أمامي فيما أواصل النَّقْر، كنتُ أذوب وأندمج مع سِحْرِ صوتها الذي أسمعه متفردا بعيدا عن الضجيج، تعاطف الجمهور مع رجلٍ يتحرَّر من بؤسه بمهارته في العَزْف، رجلٍ غَنِيٍّ بِنَغَمِه ومتمازجٍ مع الموسيقى، ودودٍ ومأنوسٍ بالشَّجَنِ، أتحلى بالصمت وأكتفي بِثَرْثَرَةِ أصابعي، بداخلي أغانٍ وأهازيجُ مُكَبَّلَةٌ بألف سؤال فيما أنسجم بهدوء تام مع الفرقة، أرجع للوراء قليلا، يعزف الجالس بجواري على نايه، أنقر بأمومة على طبلتي؛ يشعر الجمهورُ بِحَميمِيّةٍ لا تنتهي حين يلتحمُ النَّغَمُ بحركاتِ الجسد في ثنائية لا تتكرر كثيرا، فَيُهَلِّلُونَ وتستفيق عقولهم لثوانٍ وهم يرددون: "الله!".

ارتفع صوت النُّبَطْشي عبر سماعاتٍ كبيرةٍ موضوعةٍ عن يمينِ ويسارِ المسرحِ الخشبيّ بعد دخول رئيس الحي أو "رئيس جمهورية المِنْطَقة" على حد قوله -النُّبَطشي-... تعجبتُ حين سمعتُ نفس الألسن التي كانت تَسُبُّهُ منذ أيام -بعد غرق طفل في بالوعة للصرف الصحي- تَلْهَجُ بالدعاء له، فيما

انزلقتْ من النُّبَطشي عباراتُ تمجيدٍ وشكرٍ لصاحب العُرْسِ الذي منحه شرف التواجد في هذا اليوم المهم، كان يردد أسماء الجميع بنفس الحماس للزَّجّ بهم في منافسةٍ قويةٍ بغرض تحفيزهم على دفع المزيد من "النُّقوط"*، ولم يكن يحط من قدر أحد حتى وإن كان على خلاف معه، حينما دخل "عبده الحلاق" الذي اشتكى لي منه بالأمس، صدح صوتُه بالمدح والثناء في حق الرجل؛ ضَحِكْتُ بصوتٍ عالٍ ولم أستطع منع نفسي من التعليق بأنه يمثّل نموذجا للتَّمَلُّقِ والنفاق، قال ببساطة:

"أكل عيشي، وبعدين دي فَهْلَوَة، ما لهاش علاقة بالنفاق"!

شَعُرْتُ بارتعاشةِ صوته بعد تهديد مجموعة من السكارى بضربه إن لم يعلن بدء العرض، أحسستُ أن الموسيقى والرقص صارا مُكمّلاتٍ مزاجيةً لما يتعاطونه من مخدرات، سمعتُه يقول بصوت خفيض:

"يا حودة، قول للست "سماهر" تِخَلَّصْ؛ خَلّي الليلة دي تِعَدّي على خير!".

"سماهر"! أعرف جيدا هذا الاسم، صاحِبَتُهُ كانت يومًا أنا، ترى هل ستعرفني حين تراني؟، لا زلتُ أذكر المرة الأولى التي جمعتنا، كنتُ في حفلة عرس "عمر الكاتب" صديقي في كلية الآداب، والذي قضى سبع سنوات من عمره فيها، والكاتب اسم أطلقناه عليه بعد فوزه بجائزة الجامعة في مجال الكتابة لأربعة أعوام متتالية، كان يبتهج بمكافآتٍ بسيطةٍ يهديها له عميد الكلية بعد كل مركز أول يحصل عليه، وتسعده

قروشٌ قليلةٌ تدفعها له الجامعة كإعانة اجتماعية بعد أن فقد والده، لا أنسى كيف بكى يوم تخرُّجِنا قبل أن يطلب مني إخباره بأي فرصة عمل قد تمر أمامي وإن لم تناسبه.

لكنه وبين عَشِيّةٍ وضحاها صار من أغنياء مدينتنا، لدرجة أنه أقام عُرْسَهُ في قاعة أجْرُها في بضع ساعات يعدل أجري في أشهرٍ ستٍ، يومَها كانت "سماهر" تَتَلَوَّى أمام العروسين، استأذنتُ الطَّبَّالَ وبدأتُ في الدق على الطبلة بدلا منه، تفجرت عبقرية جسدها واقتنع الجميع بأنها وُلدت لتكون نجمةً فوق هذا المسرح، تماما كاقتناعي بعبقرية كلمات السياسي المعروف الذي ألقى خطابه على مسامعنا منذ شهور.. يبدو أنه كان يُصَدِّقُ كل ما كُتِبَ أمامه حتى أننا صدقناه.. الخطاب كتبه مبدعٌ كان يحلُم بوضع اسمه فوق غِلاف كتاب، لكنهم يسرقون الأحلام، حين عاتبتُه بعدها بشهور قال لي بلغة ساخرة تحمل كل ألم ومرارة:

"لا تتعجب.. نحن متشابهان حَدَّ التوحد؛ الطبلة عنصر أساسي في الفرقة، مع كل لمسة فوق سطحها الرقيق تجد ما يطعمك وأبناءك، وأجد أنا ما آكله مع كل كذبة يطلقها لسان السياسي!، أنت تضبط إيقاع اللحن فتتجاوب معك الراقصة وأنا أضبط إيقاع الخطاب لأقنع جمهورا من السكارى بالتصفيق!".

صمت قليلا قبل أن يتابع: "سياسيونا يعشقون التطبيل ونحن شعوبٌ مولَعَةٌ بالرقص في كل الأوساط يا صديقي!".

كانت حقا نجمة عالية جدا حتى أن أحدا لم يستطع لمسها، أحببتُها وأحبتني، طلبتها للزواج، أخبرتها أنني أرغب أن يكون هذا الجمال لي وحدي، همستْ لي يومها أن أتبعها إلى غرفتها، أجلستني على كرسي أمامها، قالت أنها تحبني كما أنا، بكل عيوبي ومساوئي تحب ذلك الشخصَ المثقَّفَ القابعَ داخلي، ثم تابعت بصوت يَشِيْ بعتابٍ واضحٍ ويوشك على البكاء: "كلكم ترغبون في الجمال لكن أحدا لم ينظر إليَّ من الداخل، حتى أنت!".

مدت يدها إلى رأسها، رفعت عنه الشعر المستعار الذي كان يَتَهَدَّلُ فوق كتفيها، ثم أمسكت منديلا أزالت به طبقات سميكة من الطلاء فوق وجهها وصرخت: "أنا قبيحة، هل ترى؟ أنا قبيحة جدا!".

كانت هذه هي الصورة الأخيرة التي انطبعت في ذاكرتي، خَرَجتُ من غرفتها تائها، لم أدرِ لماذا لم أخبرها أنني أحببتها أيضا بكل عيوبها، بقلبها المُهَشَّمِ وبعقلها الصديء، وربما كانت ستتهمني بالجنون إن أخبرتها أنني أحببت طهرا لم يره فيها أحد سواي، كنتُ أرغب في العودة إليها.. لكن

سيارة مسرعة فاجأتني عرفت بعدها أن قائدها هو ابن السياسي المعروف وأن...

"سيد يا طبّال، اشتغل... "سماهر" وصلت!".

أرجع بالكرسي للوراء، أمسك بطبلتي، أعدل وضع النضارة السوداء على عيني وأبدأ العزف!

خيالُ مَآتة

كان يقف بسيارته أمام إشارة المرور، حين التقتْ أعينُنا للمرة الأولى منذ أعوام، أوقفها جانبًا وحَثَّ الخُطى تِجاه الناحية الأخرى من الشارع، سَلَّمَ عليَّ بحرارة، بدا جسدي نحيفًا جدا مُقارَنةً بجسده، القبعة الكبيرة التي أعتمرها، وكوبا الشاي اللذان كنت أمسكهما وأباعد بينهما جعلا شكلي أشبه بخيال المآتة.. سألني عن سبب تواجدي في هذا المكان، أَمْسَكَ بطرف قميصي المُتَّسِخ، رمقني بنظرة عطف، حَمْلَقَ بتعجب في حذائي المهترئ، ثم قال:

"بالتأكيد لم يكن هذا ما سعيتَ إليه"، تابع -كمن يحاول أن يكذب حَدْسَه-: "لماذا تقف هنا؟".

قلتُ بعد أن رفعت القبعة عن رأسي فظهرتْ شُعَيْراتٌ بيضاءُ تَمَرَّدْنَ على اللون الأسود حولهن:

"حين تخرجتُ من الجامعة كنت أملأ صدري بنسيم الأمل، انتظرتُ الوظيفة بصبرِ أمِ رؤومٍ تنتظر عودة ابنها الغائب، ما كنت أعرف أن التلوث قد نال كل شيء وأن التقدير الذي حصلت عليه لا يساوي ثمن الورقة المكتوب عليها، التقديرُ الحقيقيُّ هو وساطة أحد الكبار، وأنا قَزْمٌ لا أحدَ يلحظ وجودي، نَزَفَتْ حماستي حين بُترت أحلامي الواحدُ تِلْوَ الآخر، وقررتُ أن أخلق لنفسي عملا.. لأُبقِي عليه أضطر لدفع مائتي جنيه كل شهر لموظفِ المجلس المحلي فيغض طَرْفَهَ عني، مشروبات أمين الشرطة الواقف هناك

كلها مجانية ومع هذا فقد تم إخلائي من المكان عدة مرات من قبل، في المرة الأخيرة قال أحدُ الموظفين أنني نَدْبةٌ في جَبِيْنِ الميدان! لكنني وفي كل مرة كنت أعود وأتمسك بعملي الذي لا أجد غيره، هل تعرف يا صديقي معنى أن تبيع أُمُّكَ بعضَ أواني الطعام لتشتري بثمنها عددا من الأكواب وكيسا من السكر وآخر من الشاي؟!

أَطْرَقْتُ إلى الأرض أغالب دَمْعتي، استطعت بصعوبةٍ ابتلاع ريقي وإن ظلت الغُصَّةُ العالقة بحلقي مكانها، أكملتُ:

"يبدو أن الأيام قد صادقتك بعد أن تركت الجامعة".

ضحك الرجل ضحكة طويلة، رَبَّتَ على كتفي عدة مرات، أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، نَفَثَهُ ببطء، بدا فمه كمِدْخنة قطار بخاري قديم، سَعَلَ بشدة فانفلت زِرُّ قميصِه المكويّ بعناية، قال كرجل لا يهتم لشيء :

"لا تزال مهذبا... تقصد: بعد أن فُصلتُ من الجامعة".

ابتسمتُ ابتسامة باهتة، تابع بعد أن أخفق في غلق الزر:

"لقد عملتُ بالتجارة، أعطيتها وقتي فأعطتني المال والنفوذ والأسرة، هل تعرف من تكون زوجتي؟".

هززتُ رأسي بالنفي، أكمل:

هل تذكر الدكتور "صالح منجي" أستاذ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية؟

- بالتأكيد أذكره، لطالما قرأنا كتبه حول الحرية والديموقراطية والعدالة.

- صار سفيرا الآن وقد تزوجتُ ابنته وأنجبت ابنةً جميلةً بعيون زرقاء وشعر أصفر ناعم!

سحب نفسا طويلا من سيجارته التي كانت تحتضر، قبل أن يقول بفخر:

"أنا الآن صِهْرُ السفير "صالح منجي"، وشريكه المستقبلي في قطعة الأرض على الجانب الآخر من النيل، سنبني عليها مصنعا لإعادة تدوير النفايات".

حَكَكْتُ رأسي ومسحت قطرات عرق نَزَّتْ على جبيني، حاولت أن أقاوم سؤالا ملحًّا لكنني لم أستطع، فقلت بصوت مُتَهَدِّج:

وهل تسمح قوانين البيئة والموارد المائية والري بذلك؟

- أي قوانين تلك التي تتحدث عنها؟! نحن من نضع القوانين، عرضُنا لا يمكن رفضه طالما أن الفائدة ستعم على الجميع، إنها صفقة العمر يا صديقي... هذا كارت مكتبي؛ اتصل متى كنت بحاجتي.

مَرَقَتْ سيارتُه من أمامي كَبَرْق، كان النهار قد انتصف، جلستُ بجوار عمود كهرباء أتابع المارة والبائعين، اقتربت مني سيارة الإشغالات، تَرَجَّلَ منها ثلاثة أفراد، جمعوا الأكواب والمَوْقِدَ ووضعوها فوق السيارة ثم انصرفوا، ظَلِلْتُ واقفا مكاني، تأملت المكان الذي بدا فارغا من كل شيء عدا حباتِ

سكر متناثرة وكوبٍ مكسورٍ ومصحفٍ وحافظةِ نقودٍ لا تحوي سوى ثمانيةِ جنيهاتٍ وبِطاقةٍ وصورةٍ لامرأةٍ عجوزٍ تَنِدُّ عن شفاهها المُتَقَرّحةِ بسمةٌ يبدو معها الفمُ خاليًا من الأسنان.. تذكرتُ فجأةً دواءَ السكر الذي حَرَمَتْها قلةُ حيلتي إياه حتى تلاشى بصرُها.. حل الليل سريعا هذا اليوم، لم أتمكن من رؤية الأضواء الصادرة عن أعمدة الإنارة، تمددتُ فوق الرصيف، تأملتُ الظلام الذي يَلُفُّني رُوَيْدًا رُوَيْدًا حتى اشتدت حُلْكَتُهُ فكدتُ أختنق، أغمضت عيني وبداخلي سؤال يتردد: متى يأتي الصباح؟!

- خيال المآتة: فَزَّاعة الطيور.

أحلامُ العَوْدة

في يومه الأول كان يتطلع بِشَغَفٍ إلى الهاتف الذي تحمله أمُّه، أمضى أياما كثيرة يسمعها تتحدث عن الإنترنت وعن يوميات صديقاتها على صفحات الفيس بوك، تعجَّب من إصرارها على التقاط صورةٍ له بعد دقائق من ولادته، لكن سرعان ما زال تعجبه حين أشارتْ إلى الشاشة وقالت بسعادة: "انظر يا صغيري، هذا أنت!".. ثم منحتْه قُبْلَةً طويلة لم تكن كافية لِمَحْوِ الخجل الشديد الذي اعتراه حين رأى الصورة، كونه لم يكن يرتدي شيئا!

قَرَّرَ حينها أن يُنشئ صفحة يسجل فيها ما يحدث له في حياته وأن يتعجل عَمَلَها فهو يرغب في التعرف على أصدقاء يماثلونه في العمر، فَكَّرَ أن يكون منشوره الأول عن لحظاته الأخيرة فيما اعتبره سجنا مظلما، كان مُقَيَّدًا فيه بحبل طويل، يسمع أصواتا تأتيه من الخارج لكنه لا يستطيع مشاركتهم الحديث، ينفعل فيحرّك يديه ورجليه محاولا إخبارَهم بوجوده، عَلَّ أحدًا منهم يُنقذه، لكن بلا جدوى، أيامه البطيئة أمضاها في نوم يحمل أحلام الخروج، ومن آن لآخر كان يحرك رأسه وأصابعه، ليتأكد أنه ما زال حيا، قبل أن يُكَحِّلَ النور عينيه شَعُرَ أن سجنه يضيق جدا ثم يعود لما كان عليه،

فجأةً وجد نفسه في مكان آخر، لا يدري كيف وصل إليه، ربما سَيُفيده أصدقاؤه على الفيس بوك في ذلك فلا بد أن أحدهم مُثَقَّفًا وسيعرف تفسيرا لما حدث، لكن حتى وإن لم يجد التفسير فلن يهتم لهذا كثيرا، ما يهمه حقا أنه نال الحرية!

بعد عدة أشهر تمكن من إمساك الهاتف، كان ثقيلا نسبيا مُقارَنةً بحجمه، أَمْلَسَ وقاتمَ اللون، أضاءت شاشته الأمامية حين لمستْها أنامله، رأى عالما ثَرِيًّا يموج بالأشكال والألوان، تساءل في نفسه عن السبب الحقيقي وراء منعه من اكتشاف المجهول، استطاع أن يميز بعض الأيقونات، قبل أن يضغط على إحداها، اختطفتْه منه يدٌ على حين غِرَّة، اعتراه غضب شديد، فقد اقترب عمره من الستة الأشهر ولم يستطع حتى الآن إنشاء صفحة خاصة به، يسجل فيها انطباعاته عن المجتمع الجديد، أعلن تَمَرُّدَهُ بالبكاء، حَشَرَتْ أمُّه قطعةً من جسدها في فمه، كاد أن يختنق، حرك لسانه بقوة لإبعادها فلم يفلح، كرر المحاولة دون جدوى، استطاع ببساطة أن يدرك أن للمقاومة في بعض الأحيان نتائجَ عكسية، كان عليه في النهاية أن يستسلم للنوم!

في المرات اللاحقة -وفي غفلة من أمه- تمكن من تسجيل الدخول لعددٍ من غرف التعارف، وتبادل مع أقرانه الأسماء والجنسيات، لفت نظرَه أن أحدهم تحدث عن وجود مائتي صديق من جنسيات مختلفة على صفحته، وتحدثتْ أخرى عن الحرية التي حَظِيَتْ بها منذ خروجها

إلى العالم الجديد، أطفال الدول العظمى اتفقوا على أجندة مشتركة واجتماعات دورية لمناقشة ما يُواجههم من مستجدات، تمنى بعض أطفال العالم الثالث أن يحضروا تلك الاجتماعات لكنهم مثلَه لا يملكون هواتفَ ولا حساباتٍ خاصةً بهم، أصابه الحزن، بدأ بِرَكْلِ الأشياء الموجودة بجواره، سقط الهاتف على الأرض، عوقب ببضع ضربات على يده، ثم رفعتْ صوتها بنبرة تحذير حادة جعلته يبكي، كانت مشغولة بما يكفي لتتركه بمفرده بعد أن لَوَّحَتْ له بالضرب مرة أخرى في حال لم يكف عن البكاء!

بعد عدة أعوام، ازداد العالم الجديد ضيقا، صار يتأمله بعيون قَلِقَةٍ يتأرجح بين نوره وظلامه وصمته وصُراخه، استطاع أخيرا أن ينشئ صفحة على الفيس بوك.

كتب منشوره الأول... أتمنى أن أعود إلى ذلك المكان الفسيح حين كنتُ جنينا!

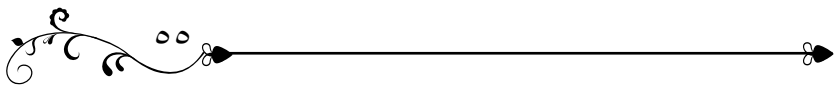

زهرة

الجَلَبَةُ العالية في الخارج أجبرتني على فتح باب الدار لاستطلاع الأمر!

"اِحْزِموا حقائبكم بسرعة، أمامكم ساعتين لتلحقوا بالحافلة، إنها فرصتكم الأخيرة للنجاة!".

هكذا صرخ جاري وهو يُهَرْوِلُ مسرعا تِجاه منزله.. لا أعرف كيف عبرتُ الدِّهْلِيْزَ ووصلت لصحن الدار، تَكَوَّمْتُ بجوار البَحْرَة*، أحاول لَمْلَمَةَ شَتاتِ نفسي، لا أعرف من أين سأبدأ، أي شيء ينبغي عليَّ أخذُه وأي شيء أتخلى عنه؟، كل قطعة هنا جزءٌ مني، كل حجر في هذا البيت يمثّل تاريخا وهُوِيَّة، دموعٌ تَقافَزَتْ رغما عني واختلطتْ بقطرات الماء المتناثرةِ من النافورة أمامي، أحسستُ بيدي أمي تُحيطني، تمامًا كما كانتْ تفعل وأنا صغيرة... قالت بصوت يملؤه الحنان: "قومي يا مه.. فيش وقت".

مسكينة أنت يا أمي؛ عشتِ عمرا طويلا تَحْلُمين بالعودة لقريتك بالجليل وتبكين كلما تذكرتِ مقولة ذلك الصهيوني: "إلى الشمال.. إلى الشمال"* تَهْرُبين من هناك إلى لبنان، كطائر أحرقوا عُشَّهُ ثم كسروا أجنحته، وطلبوا منه أن يقاوم ليظل حيا في الغابة وَسْطَ السباع، وقاومتِ وجئتِ إلى هنا، صنعتِ أسرة سعيدة لكنك كنت تَحْكين لي كل ليلة عن هذا الوطن، عشرون عاما يا أمي لم تنسي يوما أن تحكي وأن تبكي، وها أنت الآن تُهَجَّرين من جديد، فكم من دمعة ستذرفينها بعد اليوم!

التفتُّ إلى يميني، كان أبي واقفا أمام القاعة* يتأمل بحسرة الأسقف والجدران المُزَيَّنة، ينظر للشَّقِّ الطوليِّ بها، وهو يضع يده على رأسه، ثم يحول نظره ناحية مَرْبَع الأكل* الذي تَهَدَّمَ بالكامل، كان حزينا جدًّا، وبدا أنه يحاول إخفاءَ غَيْماتِ الدموع التي غَشِيَتْ عينيه، أبعدتُ يدَ أمي عني، حاولت أن أهرُبَ من أمامه قبل أن تَهْطِلَ الأمطار من سماء عينيه، أسندت السُّلَّمَ الخشبي على الجدار وصَعِدْتُ إلى الطابق الأعلى ومنه إلى السَّطْح، نظرت إلى الشوارع في الأسفل؛ كانت تَعُجُّ بأصوات الراحلين الذين عوقبوا بالتهجير لأنهم لم يموتوا، الحافلات المُكْتَظَّةُ لا تحكي سوى صورة واحدة لبيوت مهدمة انعكست بقهر فوق زجاجها، النظرة الأخيرة لكل طفل على بيته، دموع الراحلين، المشاعر المختلطة

حول سبب بكائهم، أهو وجع الحنين أم وجع الرحيل؟، رجال مُسَلَّحونَ هنا وهناك، أعلام مختلفة تُرَفْرِفُ فوق منازل هَجَرَهَا أصحابها توًّا، كل يمضي في اتجاه، مشهد يخبرك أنه ما من شيء يوحد الجميع!

شعور غريب ينتابني أمام تلك الصور، أي الأشياء تلك التي يتوجب عليَّ جمعها؟، هل أحمل غرفتي وملابسي التي ما زالت مُبْتَلَّةً فوق المَشْرَفَةِ*، أم أحمل النافورة والياسَمين ودالِيَةَ العِنَبِ وأشجار المشمشِ الهندي، أم أجمع العصافير التي تعود لأعشاشها في مثل هذا الوقت كل يوم، وإن استطعت جمع كل هذا، فماذا عن "عَبُّود" كيف أتركه بمفرده وقد تعاهدنا أن لا يفرقنا سوى الموت... ذلك الخاتم في يدي كان شاهدا، الشجيرات في طريقنا من باحة المسجد حتى هنا كانت شاهدة، الجيران والأطفال، العصافير.. السحائب في السماء، المطر الذي رَوَى قَلْبَيْنا يومها كان شاهدا، كيف أخونه وأرحل؟ ماذا أقول لرب العالمين حين يسألني عن ذلك العهد؟!

"عودي لرشدك يا زهرة لا وقت للوقوف ببلاهة الآن، انزلي بسرعة قبل أن تتحرك الحافلة!".

جاءني صوت جاري من جديد، كانت الشمس تميل ناحية الغروب، وَدِدْتُ لو أنهم أمامي الآن لأعاتبهم، كيف استطعتم أن ترحلوا وتتركوني بمفردي، لو أنني كنت أعلم لما تركتكم وذهبتُ لجلب بقية الطعام، لو أنني أعرف أن ذلك الصاروخ اللعين سيأخذكم مني ما ابتعدت عنكم قيد أنملة.. آه... ما هذا الصوت؟!، أشعر بشيء يخترقني، لماذا اختفى صوت العصافير؟!

---

* البَحْرَة: نافورة تتوسط صحن الدار أرضيتها من الرخام.

*القاعة: غرفة كبيرة داخلية مزخرفة وتحتوي على أثاث فخم لاستقبال الضيوف.

*مربع الأكل: غرفة الطعام.

*المَشْرَفة: وهو سطح صغير داخل البيت الدمشقي، بين الدرج وغرف النوم في الطابق العلوي ويوجد فيه منشر غسيل.

"*إلى الشمال.. إلى الشمال.. هذه الأرض لم تعد لكم.. اذهبوا ولا تعودوا مرة أخرى" كان هذا هو هتاف العدو الصهيوني عام ١٩٤٨ م. بأهالي الجليل والناصرة لإجبارهم على الخروج من قراهم المحترقة باتجاه لبنان.

خيال

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تراه فيها، رأتْه من قبل في حافلة للنقل العام، كان أحد أيام شهر يوليو الحارة، فَضَّلَتْ التَّرَجُّلَ وقوفا في الحافلة على الانتظار في الزحام، ثَمَّةَ روائحُ نفاذةٌ هي خليطٌ من رائحة النشادر والبَيْضِ الفاسدِ تَسَلَّلَتْ لأنفها دون استئذان وأصابتها بالغَثَيان، أحست لوَهْلَةٍ أنها قاب قوسين أو أدنى من الإغماء، بدا على وجهها الاصفرار، سَمَحَ لها أحدهم بالجلوس مكانه، كان مُهَنْدَمًا لأقصى درجة؛ يرتدي بَدْلَةً سوداء، يحمل في يده شَنْطَةَ لاب توب من الجلد الأسود ويضع رابطة عُنُقٍ حمراء.

قَفَزَ سؤال عشوائي في رأسها: ما الذي يدفع بشاب مثله للركوب في حافلة نقل عام؟ ولكنها سرعان ما طردت سؤالها حين تذكرت أنها قامت بفعل الشيء نفسه منذ لحظات، هَفَّتْ رائحتُه إليها كنسمةِ صيفٍ أنعشت رُوْحَها، تمنت يومها ألا تقفَ الحافلةُ أبدا.. أهداها القدر فرصة رؤيته مرة أخرى بعدها بأشهر في موقف سيارات الأجرة حين أرادت الذهاب معي لزيارة صديقة لنا في بلدة مجاورة، أخبرتني هذه المرة أنه كان يبدو أكثرَ وقارًا واتزانا، وأنها لمحته يحادث فتاةً جميلةً لا تعرف من تكون، لكنها لم تكن ترتدي في يديها خاتما على أي حال، فاقتربت منهما بهدوء، حتى إذا لم يعد بينهما وبينها

سوى بضعة سنتيمترات توقفت مُتَصَنِّعةً انتظاري هناك، سمعته يرفع صوته وهو يخبر الفتاة أمامه أنه يركب كل يوم من هذا المكان!

خُيِّلَ إليها أنه يعطيها هي موعدا لتراه مجددا، كان هذا كافيا لتنفرج شفتاها بلطف عن ابتسامة خَجْلى حاولتْ أن تخفيها ولم تفلح، فآثرتْ الابتعاد حتى لا تخرج مشاعرها عن السيطرة، إلا أن عينيها ظلت متعلقة به، وظل عقلها مشغولا طيلة الزيارة وهي تفكر من تكون الفتاة وما الشيء الذي أخرجته من شنطتها ووضعته في يده؟

لم تكن المرة الثالثة التي التقته فيها قدرية ككل مرة، بل على العكس تماما، كانت قد رتبت لهذا اللقاء جيدا، هَنْدَمَتْ ملابسها، وألقت نظرة على شكلها عبر المرآة؛ تأكدت أن كل شيء على ما يُرام، أخذت شَهْقَةً عميقة عانقت فيها بشوق نِسْمَةً صباحية خفيفة الظل، لليوم الخامس على التوالي تكرر هذا، قبل أن تسرع الخَطْوَ إلى موقف سيارات الأجرة، تلتفت يَمْنةً ويَسْرةً تبحث عن ذلك الذي اقتحمها دون كلام، وسمح لنفسه بالركض في مِضْمار قلبها دون توقف، تلاقت أعينهما، ابتسمت بتلقائية وسُرعان ما تلاشت ابتسامتها وهي تذكّر نفسها بضرورة الالتزام بالأخلاق واحترام العادات، وَبَّخَتْ عقلها الذي نام للحظات وسَمَحَ لنَبْضَةٍ أن تُفْلِتَ دون أن ينتبه، اختلست النظرَ إليه، اخترق عطره رئتيها رغم الأمتار التي تفصلهما، جاءت سيارة الأجرة؛ زاحم عددًا من الركاب المتجمهرين بجوار الباب، استطاع

الدخول ثم أشار بيده إليها، تَرَدَّدَتْ قليلا قبل أن تجلس على المقعد المجاور له.

سَرَحَتْ في تفاصيل جميلة وأشياء مشتركة، صَفَّقَتْ رُوحُها فَرِحةً، أفاقتْ من أحلام يَقَظَتِها على الضَّجَّةِ بجوارها؛ كان الشاب قد دخل في عِراك مع "الكُمْسَرِي" الذي لم يعطه المبلغ الزهيد المتبقي من ثمن الأجرة، رَجَمَتْ ألفاظُه النابيةُ وشتائمُه الوَقِحَةُ أذنَها؛ أَحَسَّتْ بالحرج الشديد ونَكَّسَتْ رأسَها، شعرت للحظة أنه شخص آخر، تدخل عدد من الركاب لحلِّ المشكلة فنالهم من الضرب وتمزيق الملابس ما نالهم، بعد حين هدأ الجميع لكن الأسئلة ظلت تتصارع في رأسها وأبى عقلها أن يربط بين صورة الشاب وتصرُّفه، وجدت نفسها تسأله بخجل عن: من يكون؟

- محسوبك إبراهيم... كومبارس بَقَفْ في الصف الأول مع المجاميع في الأفلام، علشان كده يعني تلاقيني واخد بالي من نفسي، سيما وتلفزيون وكده.. تقدري تقولي: فنان بس لسه الحظ مَخَبَّطْش على بابه!

نظرت إلى الحقيبة الأنيقة في يده، كانت صدمتها شديدة وهو يلقي أمامها ألوانا مختلفة من الشرابات القطنية والصوفية ويطلب منها الشراء!

نَبْضُ الحُبّ

زَحَفَ المساء بطيئا، أزاحتْ غِطاءَ رأسها، سَمَحَتْ لخُصْلاتِ شعرِها أن تتنفس، حَدَّقَتْ في المرآة طويلا، ألبومُها ممتلئٌ بالصور، مُتْرَعٌ بنَفَحَات عِشْقٍ هادِرٍ لا يعترفُ بقواعدَ ولا حدود، أزالت زينتها بكثير من الألم، تَنَهَّدَتْ بعمق وهي تعيد قراءة تقرير الطبيب، عَلِقَتْ عيناها لثوانٍ على الجملة الأخيرة: "الحالة ميؤوس منها".. ارتدت ثياب المنزل وعادت للجلوس أمام المرآة، تأملت عشرات الخطوط التي نبتت أسفل عينيها، أغلقتهما بصمت، عقلها بحرٌ هائجٌ وقلبها جَدْوَلٌ ينساب حبا ولَهْفة، انفرطت مِسْبَحَةُ ذاكرتها دون أن تشعر، تدحرجت الذكريات في كل اتجاه، يومهما الأول معا، كعب حذائها الذي كُسر في حفل الزفاف حين تعثرت بالفستان، عيد زواجهما العاشر، و...

- أخبرني أيها المُدَلَّلُ كيف استطعت أن تُقنع عائلتك بمباركة زواجِ الطبيب الواعد من ابنة موظف البريد البسيط!

- الحب يا حبيبتي... أدركوا أخيرا أن ذلك القلب الذي يتساقط من عليائه شوقا منذ أن كَبَّلَتْهُ عيناك لن يقبل بغيرك؛ كيف تشربُ امرأة سواك من رُوحٍ عَتَقَتْ بجنون حبك!

لم تكد تُلَمْلِمُ حباتِ مسبحتها حتى شعرت به يُطَوِّقُ كتفيها، انتشلها لَفْحُ أنفاسه من شرود صار ملازما لها كلما سَنَحَتْ الظروف، أسفرت

شفتاها عن ابتسامة خجلى، باعدت ذراعيه برفق، تحرك ليقف في مواجهتها حاجبا عن عينيها كل صورة سواه!

- كم أَعْشَقُ لون الليل في عينيك!... احتضن وجهها بكفيه ثم أكمل: "وكم أحبك!"

بعض الصمت عَلْقَمٌ، وهي المأهولة بالضجيج تنتحر الحروف على شفتيها، تهرُب من احتضان الشوق في عينيه، يسألها عن سر صمتها؛ فتجيب بحزن:

ذهبتُ اليوم إلى المستشفى، استطعتُ رِشْوَةَ أحدهم لأحصل على نسخة من التقرير الذي أخفيتَه عني... تعلم منذ عامين أنني عقيم!

- قلت لك أنني لا أريد سواكِ!

- ولكنني أريد أن تكون أبا، لست أنانية لهذا الحد... الانتظار لم يعد قادرا على ولادة شيء سوى خيبات متتالية، ثم ما هو ذنبك لتقدم على هذه التضحية؟!

- لو أنك أغمضتِ عينيك في أول مرة رأيتك بها لكان قلبي حرا حتى الآن.

- طلقني!

تبعثر نبضُه حين اخترقت كلمتها قلبه، كانت قد فكرت طويلا قبل أن تطلقها كرَصاصة من فُوَّهَةِ فمها، تدربتْ أمام المرآة عشرات المرات

لكنها مع هذا نطقتها بصوت مُتَهَدِّجٍ خافت وضعيف، قالتها بسرعةِ سيفٍ قاطع، وسمعها كصوت الرعد؛ صَفَعَها بكل ما أوتي من قوة فأسقطها أرضا، أمسك بذراعيها، رفعها لأعلى حتى وقفت، احتضنها ورُوحه تفيض وجعا!

- إنني أرى النور بعينيك، هل ستكونين بخير لو أنني صِرْتُ ضريرا، كيف أتركك وقد تعلق قلبي بك حد الاكتفاء، أنت طفلتي فهل يترك أب أطفاله؟!

هَطَلَتْ من رَحِمها بشائرُ الفرح، توارت الغيوم وانبلج الفجر، انسكب شعاعُ البَهْجَةِ حين احتضنت صبيا شديد الشبه بأبيه بعد سنوات طويلة ظنت فيها أن الحياة تُشيح بأفراحها عنها، صارت تنتشي كلما سمعت صوته، تتراقص آمالها على وقع ابتسامته، نبتت شُجَيْراتُ حُبٍّ فطريٍّ احتلَّتْ كل المساحات الفارغة في قلبها وأحالته جنانًا خضراء، لم تكن تعلم أن القدر خَبَّأَ لها سِكِّيِّنا حادًّا اجْتَثَّ به جَناحَ سعادةٍ كانت تُحَلِّقُ بها في السماء الثامنة؛ ساءتْ حالةُ الصغير، لم يَعُدْ قادرا على التنفس، ازْرَقَّ جسدُه، تم وضعُه على جهاز التنفس الصناعي!

- بقاء هذا الطفل حَيًّا كل هذه الأشهر معجزةٌ تستحق الدراسة... ابنكما لديه عَيْبٌ خَلْقِيٌّ في الرئة، إن اكتملت المعجزة وبقى حيا حتى سن الخامسة نستطيع إجراء الجراحة!

ألقى الطبيب كلماته ثم ابتعد؛ مادَتْ الأرض أسفل قدميهما، ما أصعب أن تمنحك الحياة عطايا طال انتظارها ثم تسلبها على حين غِرَّة! تتمنى حينها أنك لم تحلِّق في سماوات الحُلْمِ لئلا تستفيق يوما على أرض الواقع الجدباء.

عادت تَلوذُ بزاوية الصمت بعد أن فارقتها البسمة بِفِراقِه؛ الحنين إليه يُوَلِّدُ جِراحًا لا تُشفى والحُبُّ يُضَمِّدُ الجُرْحَ ولا يمحو الأثر، وَجَعُها يشتد وَوَهَجُ ضيائِها يختفي، يسير إليها الفَرَحُ بِخُطُواتٍ مُتَرَنِّحة، تماما كخُطُوات ذلك الطفل الذي رَكَضَتْ تِجاهه حين رأت قدمه تلمس الأرض للمرة الأولى، احتضنته بلهفة، تراجعت أمه قليلا، سَمَحَتْ لها بوضع رأسها فوق صدره، اختلطت بسمتها بالدموع حين أدركت أن قلب ابنها ما زال على قيد الحياة!

الرحلة (SU - 2425)

"الكابتن "آدم" ومَلَّاحو الطائرةِ يرحبون بكم على متن رحلة الخطوط الجوية الروسية رقم(SU - 2425) ، تستغرق الرحلة (٤) ساعات حتى الوصول إلى مطار"Moscow Domodedovo" ، كابتن الطائرة والفريق المعاون يتحدثون خمس لغات فلا ترددوا بطلب المساعدة في حال احتجتم إليها، نعتزُّ بخدمتكم!"

أعلنتْ المضيفةُ بدايةَ الرحلة، فأصدرتُ إشارة البدء.. كان الجَوُّ صَحْوًا والسماءُ صافيةً، وفرحةٌ عارمةٌ تعتريني لأنني سأعود اليوم إلى منزلي في موسكو وإلى صغيري الذي أَتَحَرَّقُ شَوْقًا لرؤيته.. عندما أعلنتْ المضيفة من جديد رَبْطَ أحزمة الأمان استعدادا للهبوط؛ لَمَحْتُ كُتْلَةً ناريةً تقترب من أحد جَناحَيْ الطائرة فانحرفتْ بسرعةٍ للاتجاه المعاكس؛ انزعج الركاب وعلت أصواتهم؛ طمأنتُهم بأننا نواجه مطباتٍ هوائيةً وسنعبر المِنْطَقة بأمان خلال دقائق، ظلت تلك الكتلة تطاردني قبل أن تنضم لها أطباق مَعْدِنِيَّةٌ مستديرة، تُشِعُّ منها أضواءٌ خضراء ويحيط بوسطها حلقة ملونة بلون أرجواني قانٍ، لم أصدق ومن معي في قُمْرَةِ القيادة ما يجري، طلبنا المساعدة من القاعدة الأرضية فاستنكروا ما قلناه خاصة أن أجهزة المسح الجوي لم ترصد أية ظواهر غريبة، لكنهم نصحونا بالهبوط اضطراريا في حال استمرت ملاحقة الأجسام المجهولة لنا!

قلت لزوجتي وأنا أضع صغيري في سريره:

"كنت قبل اليوم أشك في وجود الأطباق الطائرة، ولو لم يكن رفيقاي شاهداها لظننت أنه مَحْضُ خيال، صدقيني كانت أطباقا طائرة!".

رسمت شفتاها ابتسامةً حائرةً تَشِي بالتشكك خاصة بعد أن أنكر كل من كان على متن الطائرة رؤيته أطباقا سواي!

- أنت ترهق نفسك كثيرا.

- ألا تصدقين ما رويتُه لكِ؟!

- لنتحدث في الأمر بعد أن تأخذ قسطا من الراحة يا عزيزي.

امتثلت لرغبتها، أخذت حماما دافئا ثم شَرَعْتُ في شُرْبِ كُوْبِ لبنٍ أعدته لي وقبل أن أُنْهِيَهُ أحسستُ بِخَدَرٍ يسري في جسدي!

- ماذا وضعتِ في اللبن؟

- وضعتُ منوما؛ ليساعدك على الاسترخاء.

ساعدتْني حتى تمددت على السرير، قبلتْ جبيني، ثم غادرت.

استيقظتُ لأجد نفسي في غرفة واسعة أشبه بغرفة عمليات، وأمامي كائنات تشبه البشر وليسوا بشرا، كانت رؤوسهم بَصَلِيَّةَ الشكل، تحوي انتفاخا واضحا فوق آذانهم، عيونهم صغيرة جدا ولا أثر فيها لبياض، لهم أذرع أطول من أذرعنا، وعلى صدورهم شاشةٌ كمبيوتريةٌ ممتلئةٌ بكلمات كُتبت بلغةٍ أجهلها؛ حين بدأت بالصُّراخِ خلت أنهم لا يسمعون حتى تقدم أحدهم، كان مختلفا قليلا؛ أذرعه

قصيرة وعيناه بيضاء تماما، أخبرني أنه "أفانتوس" كبير علماء الكواكب وأنه يعرف كل اللغات؛ سألته بخوف عن سبب وجودي عندهم، فقال:

أنت الآن على كوكب المشتري أكبر كواكب المجموعة الشمسية وأكثرها تقدما وتطورا، لنحافظ على ريادتنا العلمية نرسل من آن لآخر عددا من الأطباق الطائرة المزودة بكاميرات لمراقبة الأوضاع على كوكبكم خصوصا تجارِبَكم مع الأسلحة الكيميائية والنووية، لن نسمح لكوكب آخر أن يسبقنا أو أن يمثل خطرا علينا؛ لهذا نحن بصدد إجراء تَجْرِبَةٍ فريدة على عدد من الأرضيين!

- تجربة!

- نعم، لدينا مُعْضِلَةٌ كبيرة، نحن نتكاثرُ بسُرعةٍ مُذْهِلةٍ، ومع تَزايُدِ أعدادنا لم تَعُدْ الموارِدُ المتوفرةُ كافية لِمَنْحِنا الحياة؛ فصار لزامًا علينا تعويضُ النقصِ بغَزْوِ كوكب آخر لتأمين احتياجاتنا، راوَدَتْنا فكرةُ القضاء على سكان الأرض باعتبارهم الأضعف عن طريق رَشِّ سائلٍ مُميت، لكننا تراجعنا؛ فنحن لا نريد أن نبدو أمام الكواكب الأخرى مُعْتَدين وقَتَلَة، لهذ اقترح أحدُنا حَلًّا جديدا.

أَكْمَلَ بعد أن جَحَظَتْ عيناه بطريقة أَشْعَرَتْنِي بالخَوْفِ والغَثَيان: "المجانين!".

قلتُ مستفهما: "ما بالُهم؟".

- سنزرع داخل رأسك الشريحة رقم (SU - 2425) إنها أحدث ما وصلت إليه أبحاثنا؛ ستتصرف بغرابة شديدة، وبمرور الوقت لن يكون أمام أهلك سوى أن يودعوك إحدى المصحات العقلية، هناك ستبدأ الشريحة عملها الأساسي عن طريق نقل ذبذبات عقول المجانين الذين ستراهم، سنعرف كيف يفكرون والأسباب التي أوصلتهم لهذه النهاية، وبعد دراسة الأفكار والأسباب سيتم بثها بين السكان عبر مندوبينا على كوكبكم، حينها سيصبح اسمه الكوكب المجنون، تخيل مجموعة مجانين يعيشون في مكان واحد بالتأكيد ستكونون بحاجة للحماية، ولا أقوى من كوكبنا ليحميكم!

- أنتم مجرمون، لن أسمح لكم بهذا.

- صرتَ مُسَيَّرًا لا مُخَيَّرًا... بالمناسبة الشريحة ضد الكسر أو الأعطال ولا يوقف عملها سوى أن تغمرها كليا بالدم أو أن تموت!

حينما عُدْتُ كنت مُشَوَّشًا جدا، أصوات غريبة تمنعني النوم، كائنات فضائية تلازمني في كل وقت، وتجبرني على القيام بتصرفات لا تَمُتُّ للبشر بصلة، قالت زوجتي أنني حاولت قتل ابننا، ومنحني مديري إجازة مفتوحة بعد أن أوشكتُ على الهبوط بالطائرة في المحيط! وحين أرسل لي صديقي عنوان طبيب مختص بالأمراض العقلية،

تذكرت كلمات "أفانتوس" رحت أضرب رأسي في الحائط بعنف، تمنيتُ أن أصاب بنزف داخلي تُغْمر فيه الشريحة بالدم!

في غرفة الطوارئ كنت أردد: "أنا طيار بالخطوط الجوية الروسية، لست مجنونا، هناك خطة لاحتلال هذا الكوكب، أرجوكم صدقوني".

كنت أصرُخ كالمجنون، حين أحسستُ بزوجتي تحتضنني وتقول مهدئة رَوْعِي:

"أنت الآن بخير، هذا مجرد كابوس لعين".

تائها كنتُ بفضاء الدهشة، حَمِدْتُ الله أنه لا وجود ل "أفانتوس" ولا للشريحة، قررت أن أقنع نفسي أن ما رأيته كان مجرد خيالات لا صحة لوجودها، غير أن زوجتي قالت بتردد:

"لقد أذاعوا في التلفاز منذ دقائق خبر سقوط كتلة حديدية ضخمة تحمل رقم(SU - 2425) ، وتشبه في مواصفاتها ما رويته لي قبل نومك!".

حياة

كانت الساعة قد جاوزت السادسة بدقائق خمس، بدا عليه التعب والإنهاك، بعد أن أمضى وقتا طويلا في جمع كتبه وأوراقه، تَنَهَّدَ بِعُمْقٍ ثم عاد يقلِّب بصره بين محتويات الرف الأخير، الغبار الذي وجد لنفسه مكانا آمنا فوقه وَشى أن أحدًا لم يلمسه منذ سنوات؛ أوراق كثيرة تحوي قصائدَ موضوعةً بين دَفَّتَيْ حافظة، ومخطوطةً لرواية لم تكتمل، ودفاترَ ملونةً بلون واحد نَقَشَ داخلها ذكرياتِه، ورصّها بعناية طِبْقًا لتواريخ السنوات، مد يده إلى أقربهم إليه، ضربه بقوة بيده عدة مرات ليزيح عنه الغبار، تخير صفحة من المنتصف، قرأ بصوت عال:

"أدركت حين رأيتك أن الطريق إليك شاقٌّ وشائك لكنني أَعْشَقُ الصعب... سأتأرجح على خيوط الأمل حتى أصل إليك يوما"!

ضَحِكَ بسُخرية، أغلقه وأمسك بآخر، فتح صفحته الأولى، وقع بصره على الأسطر الثلاثة الأخيرة:

"أي سحر هذا الذي ألقيتِه على فؤادي، وأي قيد ذلك الذي قيدتِ به قلمي، يبدو أنني لن أكتب إلا عنكِ، عن ذلك التحليق في السماء بغير أجنحة، عن زَحْفِكِ المُقَدَّسِ إلى أعماقي وعن استسلامي مع أول بسمة رسمتِها على وجهك لي، سأكتب عن سعادتي باحتلالك لدواخلي، قد تضحكين حينها

وتقولين بِتَشَكُّكٍ: "وهل يسعد أحد بالاحتلال؟!"، وسأقول لك: "فقط حين تصيبه لعنة الحب!".

دمعتان ساخنتان سقطتا من عينيه فأحرقتا قلبه، زَفَرَ آهةً طويلةً، عاتب نفسَه بصمت: "من منّا كان المخطئ؟ آه يا امرأة تُثْمِلُني ذكراها، كم أشتاقك يا "هند"!

قطع شروده صوت هاتفه المحمول؛ ضغط على زر الإجابة بتثاقل...

- أهلا، "مُنى"، كيف حالك؟

- بخير، أردتُ أن أخبرك أن المكتبة صارت جاهزة لاستقبال كتبك، العُرْسُ بعد أيام ولابد أن ننتهي من ترتيب الشقة بسرعة.

- اطمئني؛ سأرسلها الليلة، الآن أنا مضطر للاستئذان سأتصل بك لاحقا.

تناول أضخم دفاتره بعد أن ألقى هاتفه بإهمال فوق المكتب، فتح الصفحة قبل الأخيرة، قرأ بحزن:

"هذه هي الليلة التاسعة التي لم أتعاطَ فيها صوتَك، أَعلم أنك تفتقدينني كثيرا، هل تَمَرَّدُ النوم عليك مثلي؟، هل صادقتِ الأَرَق؟ في الليلة السابقة ظلت عيناي معلقتين في اتجاه واحد، حتى انبثق الفجر معلنا يوما جديدا لغيابك.

ما زلتِ تسكنين القلب رغم البعد، هل سنظل هكذا نقتسم رغيف الصمت ويمزقنا الخَرَس؟!"

أسطُرُه التي كتبها يوما بِجَمْرِ الحب أشعلت ذاكرته؛ كيف سَمَحَ لها أن تَسُدَّ حَلْقَ قلبِه بِمُكابَرَتِها، لو أنه امتَلَكَ يومَها مِشْرَطًا لِبَتْرِ أصابع تلك النهاية، الآن يعترفُ بِتَجَرُّدٍ أنه كان مُتخاذلا ومُكابرا.. ما يزالُ يحتفظُ بِرَقْمِها، تحركتْ يده لتُمسك بالهاتف، ضغط علامة الاتصال، فَغَرَ قلبه فاه، أتاه صوتُها، تذكر وعدَها له بأنها لن تكون لغيره إن لم تكن له، اعترته رِعْشَةُ أَسَف، أخبرها بِخَجَلٍ أنه سيتزوج، صَمَتَتْ قليلا قبل أن تستأذنه في إنهاء المحادثة لأن طفلتها تبكي!

النَّدَّاهة

منذ أن وجد "محمد أبو سماعين" نفسه واقفا بجوار جثة لامرأة فاتنة مُلقاة بجوار التُّرْعَةِ القبلية، والكل يناديه ب "محمد الشَّجِّيع" تقديرا لشجاعته وقوته؛ بدأت الحكاية حين اختفى عدد من رجال القرية في ظروف غامضة كان أولهم "فؤاد الصياد" الذي قالت زوجته أنه أصر على ركوب البحر بعد الفجر مباشرة ولم ينتظر شريكه "رجب".. وضعت يدها اليمنى على اليسرى ثم تنهدت بحسرة قبل أن تلقي اللوم على النَّدَّاهة، بعدها بشهر واحد اختفى رجلان من القرية كان أحدهما يعمل بتكسير الحجارة في الجبل والآخر سمسارا للآثار، لم تكن ثمةَ شبهةٌ جنائيةٌ في اختفاء الرجال الثلاثة، نقطة تشابه وحيدة ربطت بينهم.. طريق التُّرْعَةِ القبليةِ، لزم رجال القرية بيوتهم، لم يجرؤ أي منهم على السير في (طريق الموت) كما أَسْمَوْهُ، تَحَيَّرَ رجال الشرطة ولم يجدوا سببا مقنعا يستحق أن يكتب في محاضرهم... إجابة واحدة كانت تصل إليها نهاية خيوطهم... "ندهته النَّدَّاهة"!

ارتدى "محمد أبو سماعين" ثوبا أبيضَ غسلته زوجته بالكلور ثم بالزَّهْرَةِ قبل أن ترسله إلى "حوده" المكوجي، كانت المرة الأولى التي يلامس جسده فيها ثوبًا مكويًّا، تأمل نفسه في مرآةٍ نصفِ مكسورة، تعجب من ذاكرته التي احتفظت بتفاصيل تلك الليلة الغريبة بعد أن مضى عليها أيام ثلاثة، وهو

الذي تتوه منه المشاهد بعد ساعات من حدوثها، كان الجو باردا، وغيوم السماء تُنْذِرُ بهطول وشيك للمطر، أرسله العمدة إلى الجبل ليُحْضِرَ له غرضا كان قد نسيه هناك، اعتراه خوفٌ شديدٌ لكنه لم يستطع الرفض؛ فعلاوة على كونه خادما ينظف حظائر البهائم ولا يملك من أمر نفسه شيئا فهذه هي المرة الأولى التي يُسنَدُ إليه عملٌ بهذه الأهمية!

الموقف عسير وبندقيته التي يحتمي بها لا تكفي لتزيل الرهبة من قلبه خاصةً بعد أن رأى أمامه امرأة فائقة الجمال ترتدي فستانا أحمرَ بذيلٍ طويلٍ وتَرْبِطُ رأسَها بإيشارب لامعٍ يجعلها تبدو كعروس، تسير بصعوبة مستندةً إلى عُكَّاز، راح يضرب رأسه هَلَعًا بكلتا يديه مراتٍ متتاليةً وهو يردد: "النَّدَّاهة... النَّدَّاهة!".. ركض ناحية الجبل بكل ما أوتي من سرعة، توقف فجأة حين تذكر حكايا الأجداد عن النَّدَّاهة؛ قالوا: أنها امرأةٌ جميلةٌ مكتملةُ الأنوثةِ ولم يذكروا قط أنها عرجاءُ أو كسيحةٌ، فَمَنْ تكونُ المرأة؟!

سمع عواء ذئاب يقترب منه، ضرب طلقتين في الهواء ليبتعدوا لكن الأصوات ظلت تقترب؛ قرر أن يعود أدراجه وليكن ما يكون، سلك نفس الطريق الذي جاء منه، وقبل أن يصل إلى أطراف القرية وجد المرأة ملقاة على الأرض مصابة بطلق ناري والدماء حولها تغطي المكان، ثم رأى عددا من الرجال يقبلون عليه وما لبثوا أن هتفوا باسمه

وحملوه على الأعناق حتى بيت العمدة... من يومها لقبوه ب "الشَّجِّيع".. رَبَّتَتْ زوجته على ظهره فأفاق من شروده، بنظرة حائرة سألها: "هل وجدوا بجوار الجثة عكازا؟!".

"أهلا بالشَّجِّيع".. قالها العمدة ثم أفسح له مكانا بجواره، تغامز بعض الموجودين، سبحوا الله وحوقلوا وهم متعجبون من تقلب الأيام؛ صاح أحدهم بسخرية:

"احك لنا كيف قتلت "النَّدَّاهة" بطلقة من بندقيتك!".

قبل أن يفتح فمه وضع العمدة ساقا على ساق ثم قال:

"الأمر غاية في الصعوبة والتعقيد.. حاول رجال الشرطة مرارا قتلها لكنها كانت تختفي؛ يبدو أنها عشقت "ابن ابو سماعين" للدرجة التي فضلت فيها أن تقتل بنيرانه على أن تغادره"؛ انطلقت صيحات تعجب.. فأكمل:

"لا تتعجبوا؛ فللجمال مقاييس مختلفة وربما يكون فقدانه لجزء من عقله هو سر جماله، إنه رجل درويش من أهل الله، وأنا محظوظ أنه أحد العاملين عندي، أفكر أن أعينه رئيسا للغفر.. فما أجمل أن يجتمع في شخص قوة الجسد وقوة الإيمان!".

عادوا ينظرون ناحية "الشَّجِّيع" ويتأملون هزاله ونحافته الشديدة بصمت، بينما تدور في أعينهم عشرات الأسئلة.

- أنا لم أقتل أحدا، لا أقوى على فعل ذلك ولا أجرؤ.

- أعرف.

- تعرف! لماذا إذن أخبرتهم بكل هذا؟!

- ما رأيك في المكانة التي أصبحتَ تحظى بها، أستطيع أن أخلق عشرات القصص حول قوة بأسك وشجاعتك، وأن أجعلك بقصصي محاربا أو قديسا، الناس في قريتنا يعشقون الحكايا الغامضة ويصدقون الأساطير، يصدقون ما يسمعون وإن كان خارجا عن نطاق العقل أكثر مما يرون، لقد أحسنتُ إليك بفعلي هذا وأنتظر المقابل.

- مقابل!

- نعم، أحتاجك كأحد رجالي المخلصين.

ضحك "الشَّجِّيع" كثيرا حتى كاد يسقط أرضا؛ كان العمدة ينظر إليه بسخط وغيظ!

- سيدي، في أي شيء قد ينفعك شخص ضعيف مثلي، إنني لا أستطيع حماية نفسي، علاوة على كوني رجلا مريضا لا أتذكر شيئا بعد مضي ساعات علي حدوثه، أنا لا أصلح لشيء سوى تنظيف الزرائب.

- بل تصلح، مرضك النادر يؤهلك لأن تكون كاتم أسراري، لكن إن تجرأ المرض وفارقك يوما سأجعلك تفارق الدنيا كما جعلت غيرك يفارقها، ولن أعدم اختراع قصة جديدة لاختفائك عوضا عن "النَّدَّاهة".

- هل أنت ال...

- نعم... أنا، أنا من قتلهم .. الرجل في الجبل كان عاملا بسيطا، لم أر وجهه سوى مرة وحيدة حين تجرأ ورفع رأسه بعد أن ناداه جمالُ ابنتي، سار نحوي بخطى واثقة مدعيا أنها تحبه، المجنون كان يريد مصاهرتي، والسمسار كنت أعطيه مبلغا كبيرا في كل مرة كان يرشدني إلى مقبرة أثرية لكنه طَمِعَ في نصيب أكبر فأراد أن يكون شريكا وحين رفضت تعامل مع أعداء لي، وهَدَّدَني بدليل يملكه يثبت تَوَرُّطِي في اختفاء الكثيرين!

- لم تناده "النَّدَّاهة" إذن!

- ناداه طمعه، كما نادى الفضولُ "فؤاد الصياد" وكما نادى المرأة الجميلة أملها في أن تكون زوجة لي، وكما ستناديك ندَّاهتُك لو لم تحفظ السر.

خرج "محمد بن ابو سماعين" من دار العمدة شاردا كأنما اختطف عقله، لم يعد يرغب في البقاء بالمنزل، صار كثير التردد على الأراضي الزراعية والسير على طريق التُّرعة القبلية حافيا أشعث، وفيما كان الناس يُمَصْمِصُوْنَ شفاههم حزنا على عقله الذي سلبته "النَّدَّاهة" قبل موتها، كان هو يردد:

"هل تسمعون صوتها؟ إنها تناديكم، النداهة لم تمت!".

فتنة

تَمَدَّدَ الأسد فوق عرينه بعد أن استطاع حل الخلافات بين أبناء عمومته، لكنه لم يكد يسترح حتى فاجأه رئيس حرس الغابة قائلا:

جاءتنا إشارة أن هناك من سرق صيد النمور، وبالبحث والتحري وجدنا بعض العظام بالقرب من مكان سكن الفهود، وقد علمتْ النمور بذلك وانتشر الخبر بينهم بسرعة البرق، فأقسموا على الانتقام، سيدي... إنهم يستخدمون مصايدَ غابات الأمازون الحديثة الصُّنْع، إن تركناهم سيقتل بعضهم بعضا، وإن تدخلنا قد يُفقد عدد كبير منا!

- أيها الشِّبْلُ الفَتِيّ، اخترتكم لأنكم الأقوى والأكثر إخلاصا لأرض هذه الغابة فكونوا على قدر المسؤولية.

- ائذن لنا بالتحرك إذن.

أومأ الأسد برأسه علامة على الموافقة؛ فزأر الشبل بصوت عالٍ تجمعت على إثره عدد من الأسود والأشبال.

حالة من الهدوء المَشُوبِ بالحذر سيطرت على الأجواء، احتمت الحيوانات الضعيفة بجحورها، ولزمت الحيوانات الضخمة السيرَ في جماعات، طالبت منظمة "حيوانات متعددة وكيان واحد" الدولية الجميعَ بضبط النفس، وأرسلت مبعوثيها لمراقبة الوضع والتحالف مع الفريق المنتصر! تَسَلَّلَ الثعلبُ بخفة بين صفوف الفهود ليخبرهم أن هناك مصايدَ جديدةً دخلت الغابة، عدد من دِبَبَةِ القطب الجنوبي ارتدت فِراء مجهزا بِتِقْنِيَةِ تبريدٍ خاصة وانضمت إلى فريق الفهود، في مكان قَصِيٍّ كانت الضباع تنتظر أن تبدأ المعركة لتنال عشاءً لذيذا من بقايا السباع.

تحرك الأسد من عرينه شاردًا يفكر في الأيدي الخفية التي عبثت بأمن المكان، صَعِدَ فوق تَلَّةٍ عالية، تأمل الغابة بحسرة، رأي حُفَرًا وخنادقَ، وأقفاصًا حديديةً معلَّقةً فوق رؤوس الأشجار، تذكر كلمات سمعها من جده حين زار غابات الأمازون للمرة الأولى؛ تمتم كمن يحدث نفسه:

"نعم يا جدي، طالما يستطيعون إبقاء النار مشتعلة بيننا سيكونون هم بأمان"!

(قصص قصيرة جدا)

البَحْثُ عن حُلْم

فيما كان الرجل مشغولا بإصلاح نظارتي المكسورة، لَمَحْتُ إعلانا دعائيا (بوستر) في المحل المجاور، يحمل صورة لوسادة بيضاء، كُتب أسفلها: "الآن مع الوسادة الذكية تستطيع اختيار أحلامك المفضلة"؛ ابتهجت؛ فقد استحالت أحلامي إلى كوابيس منذ فترة ليست بالقصيرة، لهذا اشتريتها دون تردد، عُدْتُ إلى المنزل مسرعة، نزعت عنها الأكياس، ألقيت ال "سي دي" المرفق على الطاولة بجواري، نَحَّيْتُ الوسادة القديمة جانبا، ووضعت الجديدة مكانها، كانت مَخْمَلِيَّةً تُغْرِيْ بالنوم، ولما كان الوقت متأخرا فقد ضغطت الزر أسفلها ثم تمددت واستسلمت للنعاس، الغريب أنني لم أر سوى مشاهد من أفلام سينمائية شهيرة، أحسست بالغضب الشديد حين أدركني الصباح ولم تُعْرَضْ أمامي الأحلام، انتظرت حتى حان موعد عمل المحل، شكوت إليه ما رأيت وأخبرته أن هناك خطأً ما في البرمجة؛ تأملني البائع بذهول، ثم طلب مني أن أقرأ الإعلان مرة أخرى، أخرجت نظارتي التي استلمتها قبل أن أمر عليه، وقرأت بصوت عالٍ يملؤه الحَنَقُ والغَضَبُ: "الآن مع الوسادة الذكية تستطيع اختيار أفلامك!".

يا إلهي كيف لم أنتبه لهذا؟!

زَيْفٌ

جلستُ على الكرسي الموضوع أمامي، رفعتُ بصري إليها، ردد لساني دون وعي:

"وأرى جمالك فوق كل جميلة، وجمال وجهك يخطف الأبصارا"

غَضَّتْ طَرْفَها بِدَلال، شكرتني بصوتٍ هادئ، رأيتُ فراشاتٍ تحوم حولي فيما ابتسم قلبي وتعالت خفقاته، مدت يدها إلي بحافظة تحوي شهاداتها..

"يداكِ مخطوطتانِ عربيّتان نادرتانْ وكتابانِ.. ليس لهما نسخة ثانية"*

هكذا قلت، قبل أن أطلب صورة شخصية أضعها فوق استمارة طلب العمل، تَلَعْثَمَتْ وتَوَهَّجَتْ وجنتاها، أخبرتني أنها لم تكن تعلم أننا سنطلب منها صورة وأنها لا تمتلك في حقيبتها سوى واحدةٍ قديمةٍ مُهْتَرِئَةٍ، وضعَتْها أمامي، واستعدت للانصراف، أوقفتها:

"أريد صورة لك أنت".

"إنها صورتي... بدون مكياج"!

---

*البيت الأول لعمر بن أبي ربيعة،
والبيت الثاني لنزار قباني.

فنانة

تَعْشَقُ الرسم بالكلمات، تُجيد تطويع الحروف، تَعْزِفُ بها سيمفونيات ترقص على إيقاعها الحياة، قررت أن تختبر لحنا جديدا، ظلت تُفَتِّشُ عن تلك الكلمة لتُزَيّنَ بها نوتَتها المرسومة بإتقان، وهي تتساءل: "هل نقصت حروف الأبجدية؟!".

شهرزاد

وحين بلغتْ ليلتَها الألف، واستسلمت للسيف؛ نظر شهريار في عينيها، فبدآ العدَّ من جديد!

زوجة (١)

أحسستُ بالراحة بعد أن دَبَّرْتُ حادثةَ قتلٍ لبطلِ نَصِّيْ الجديد الذي ضَبَطَتْهُ زوجتُه منذ بضعة سطور متلبسا بالخيانة، سمعتُ بعدها صوت بكاء عنيف، لا أدري كيف خرجت من بين الكلمات! ألجمتْني المفاجأة حين رأيتها تقف في مواجهتي تماما، رمقتْني بنظرة عتاب، ثم ألقتْ عود ثِقاب مشتعل فوق الأوراق وانصرفت!

قدَر

ولأنني لم أَعْتَدْ أن أتراجع عن قرار اتخذته يوما؛ فقد حَمَلْتُ المِشْعَلَ بِأَلَمٍ وصَعِدْتُ إلى سَطْحِ الداربعد أن أَزْمَعْتُ إقامةَ مِحْرَقةٍ لكل الذكريات الحسنة والسيئة، مَنَّيْتُ نفسي بأن تعود ذاكرتي صفحةً بيضاءَ أُلَوِّنُها كيفما شئتُ بعيدا عن أعين القدر، تصاعدت ألسنة النار أمامي وقبل أن أُلْقِيَهم... بَكَتْ السماء!

مفاجأة

قابعٌ خلف عقلها منذ وُلدت، التقيا؛ اعْتَرَتْها الدَّهْشة حين سَمِعَتْ خَفْقه بين الضلوع!

ورطة

صديقتي المُهْمِلَةُ التي تفقد أشياءها دائما، طلبت مني أن أصنع لها عُلْبَةً مُحْكَمَةً تضع فيها ما تخشى ضياعَه، اجْتَهَدْتُ حتى صنعتُ صُندوقا سِحْرِيًّا صغيرا لا يُفْتَحُ إلا بِخَفْقِ القلب، جاءتني بعد أيام تَنْتَحِبُ وهي تخبرني أن أحدهم قد سرق الصندوق.

اطمئني لن يستطيع فتحه إلا بِخَفْقِ قلبِك، هل فقدتِ الكثيرَ من المال؟

- فَقَدْتُ قلبي!

لغة

بَكْماءُ هي، وهو أَصَمُّ، جمعتهما مقاعدُ الدراسة، تعلما لغةَ الإشارة، صَدَمَتْهُ سيارةٌ مُسْرِعة؛ ذهبت لزيارته، لم يستطع أن يحرك يده، نظر في عينيها؛ اكتشفا لغة جديدة!

قتل عمد

صنع الطفل طائرةَ أحلامٍ ورقيةً، رَبَطَها بخيط قوي، كان سعيدا برؤيتها ترتفع للأعلى، ثَقَبَتْها رَصاصة، تهاوتْ أحلامُه بسرعة، التفَّ الخيطُ حول رقبته!

وحيد

مجموعة من الخَدَمِ المُغْتَرِبِينَ يلتقون كل مساء، يلتفون حول نارٍ أشعلوها ويتسامرون، يَرْمُقُهُمْ من خلف زُجاج نافذة قصره العريق، يَتَصَدَّعُ قلبُه لضَحِكاتهم، يتنهَّد بأسى، يرفع رأسه للسماء: يا الله... لماذا لم تجعلني مغتربا؟!

قصيدة

طُلِب منها إلقاء عدد من قصائدها على هامش مؤتمر شعري كبير؛ تفاعل المستمعون بالتصفيق الحادِّ حتى سالت دموعُها فَرَحًا، حينما عادت للمنزل فتحت حسابها على "الفيس بوك"؛ كان في انتظارها عشرات الرسائل غير المقروءة، السيدات أرسلن يسألنها من أين اشترت فستانها الرائع، أما الرجال فكتبوا جميعا جملة واحدة:

"كان أداؤك رائعا.. ممكن نتعرف"!

ناشر

سنواته التي قضاها في دراسة الأدب والتَّمَرُّسِ على الكتابة، أثمرتْ عن رواية وحيدة ذُيِّلَتْ بتزكيات لكبار الكتاب، رفضتها دار النشر، ثم أرسلت إليه رواية لكاتبة شابة وطلبت منه أن يسترشد بها في المرة المقبلة.. كان عنوان الرواية "زَمَن السَّفَه".

جارح

رأته من بعيد، كان حالما وديعا؛ أَغْرَتْها أجنحتُه بالطيران معه إلى فضاءات لا تعترف بالزمان، اقتربت منه، خَمَشَ صدرَها بِمِخْلَبِهِ ثم نَزَعَ قلبَها بسرعة ورحل.

جحود

نظرتْ إلى الوادي السحيق أسفلها، رأته يَغْرَقُ... مَدَّتْ من جِذْعِ قلبها حبلا وألقته إليه، بصعوبة سَحَبَتْهُ، في طريقه إلى القمة أَغْرَتْهُ رائحُة وردةٍ سامةٍ؛ فتركه يرتد إليها، لم يكن يعلم أن حبلها مصنوع من المطاط!

خوف

اشتريتُ عُصفورين، وضعتهما في قفص جميل، مات أحدهما فَأَشْفَقْتُ على الآخر من الوِحْدَةِ؛ قَرَّرْتُ إطلاقَ سراحه، فتحت له باب سجنه وانشغلتُ بعملي، عُدْتُ بعد ساعات لأجده واقفا مكانه؛ هل تخشى العصافير الحرية؟!

أمان

كما يحتفظ مريضُ الضغط بحبات دوائه، والمريضُ النفسيُّ بالمهدئ، ومريضُ السكر بحُقْنة أنسولين وقطعة حلوى، كما يحتفظ الكاتبُ بقلمه، والفلاحُ بفأسه، والجندي ببندقيته؛ تحتفظُ هي بصورته!

سجينة

عُيِّنَتْ رئيسةً لمؤسسة حقوق الإنسان، اختارت التحقيق في ملف المعتقلين، تنتقل كل صباح من مكان لآخر، تعقد الندوات، تُنَدِّدُ بالسجون وتدعو للحرية، وفي المساء يَمَسُّها الجنون وهي تبحث عن مِفْتاحٍ ضائعٍ لتُحَرِّرَ ذلك المعتقل خلف قضبان الضلوع!

معجزة

طَعَنَها بِسِكِّينِ الهَجْر، بينما كانت تَنْزِفُ آخرَ أحلامِها الجميلة معه، عاد يحمل في يده تِرْياقَ الشوق وخيوطَ الحنين؛ وافقتْ على تَجَرُّعِ تِرْياقِهِ شَرْطَ أن يخيط موضع الطَّعْنَةِ في قلبها دون أن يترك لها أثرًا!

وحيدة

الطفلة التي كَبِرَتْ مائة عام، حين هَشَّمَتْ الحياةُ لَوْحَ مشاعرها؛

تَصْنَعُ كل ليلة في خيالها يدا تمْسَحُ على رأسها.. لتنام!

شَظيَة

بمهارةِ جراحِ تجميلٍ أَعَدْتُ ترتيبَ خارطة كياني، وضعتُ كل جزء في مكانه الصحيح، رَمَّمْتُ شراييني وأوردتي وتأكدت من أنها تعمل بشكل جيد، أدركت كم أنا بارعة حين نظرت في مرآتي؛ بدا كل شيء مثاليا للغاية، لولا تلك الكُوَّةُ الفارغة.. تَبًّا؛ هل فقدتُ النَّبْض؟!

غَيْرَة

فاجأه ألمٌ في قلبه؛ حاول الطبيب فَحْصَهُ بالأَشِعَّةِ، رفض خوفًا من أن يرى رجلٌ غيرُه صورتها المحفورةَ هناك!

مفارقة

الطفلُ الذي يُلاحقني كل يوم بِعُلَبِ المناديل، ابتهج حين مَدَدْتُ يدي له بالمال، وبَكَتْ مناديله حين لامستْ دموعي.

زوجة (٢)

أحسستُ بالراحة بعد أن استطعتُ إقناعَ الزوجةِ بالتصالح مع بطل نصي الجديد الذي كانت قد ضَبَطَتْهُ منذ بضعة سطور مُتَلَبِّسًا بالخيانة، رسمتُ بكلماتي سعادةً سُرْعانَ ما سَقَطَ جَناحاها، حين أصبح كل ما يشغل الزوجة البحث عن دليل لإدانته، فاجأني صوت سيارة إسعاف تَرَجَّلَ منها اثنان واقتادوها أمامهما، بَدَتْ شَعْثاءَ الشعر حمراء العينين، في السطر الأخير كان الزوج يَتَأَبَّطُ ذراعَ امرأةٍ أخرى لا أعرفها، بينما دموع ابنتِه تُبَلِّلُ أناملي فَتَحْرِقُها!

تَعَلُّق

أَسْقَطَها في بَحْرِهِ ظنا منه أنها لا تُجيدُ السباحة؛ رَمَتْ بكل ما أثقلها من أحزان بأعماقه، تَنَفَّسَتْ وَجْدَهُ ببطء، أصابته الخَيْبَةُ حين وجدها تَطْفو فوق أمواج هواه، سقطت من عينيه لؤلؤتان يتيمتان أغرقتا جفاف قلبها، أضاعتْ عَمْدًا طريقَها إلى الشاطئ.

بَالون

قَررتُ في لَحظْةِ سعادة أن أعفُو عن كلِ من آذاني، اهْتديتُ لفكرةٍ عجيبةٍ، سَأضع كُل مَواقفَ الحُزنِ والخذلانِ والقهرِ في بَالون حتى إذا امتلأ سَمحْتُ له بالطيران بعيدا عني، وكذنبٍ كان يُقيدني وَأُوشِكُ على التطهر منه، جَمعتُ كل شيء ثم فَتحتُ النافذة، وقبلَ أن أَضَع البَالون خارجًا، سَحَبتُه من جديدٍ للداخل لأَتأكدَ أنني رَبطتُه بإحكام، لكنه أفلتَ من يدي وارتفعَ قَليلًا ليقتربَ من السقف، الذي نَسِيتُ أن أُوقِف تَشغِيل المروحَة المعَلقةِ أسفلَه!

خَيْبَة

جلسا قِبالة بعضِهما، تَتَحاشى النظرَ إليه خشية أن يقرأ ما كُتب في عينيها، يأخذ رَشْفَةً من الفِنْجان الموضوع أمامه، يخبرها أن للقهوة المُرَّةِ مَذاقًا حُلْوًا، تَحْمَرُّ وجنتاها خَجَلًا، تَرْتَبِكُ حين يكرّر على مسامعها أنه في حضرتها يعتدل مزاجه ويبدو كل شيء حوله رائعا، قبل أن ينهضا يضع على الطاولة ضِعْفَ المبلغ المطلوب ثم يقول: "لا شيء يستطيع تعديل المزاج كفِنْجان القهوة الممتاز الذي يصنعه هذا الصبي الذي يعمل هنا"!

اغْتِيال

كانا ضِلْعَيْ مثلث، يقفان على قاعدة قوية رُسِمَتْ بخطِّ وُدٍّ رقيقٍ يصل بين قلبيهما، اغْتالَتْ الحياةُ زواياهما، اخْتَفَتْ نقطةٌ كانت تجمعهما؛ صارا خَطَّيْنِ مُتَوازِيَيْن.

هذا المساء

أَهْرَعُ مُسْرِعةً لخزانتي، أفتِّش عن أثواب قديمة فَقَدَتْ ألوانَها وبَقِيَ عِطْرُها، أنتقي أحدها، بصعوبة أحاول ارتداءه، يأبى السَّحّابُ أن يرتفع، أَشُدُّهُ بِعُنْفٍ للأعلى؛ تتمزَّق الذكرى... أسترجع بصمت محاولاتي لِتَعَلُّمِ الحِياكة عَلَّني أُصْلِحُه؛ فأفشل.. أستسلم لإِغْفاءةٍ مُتَعَمِّدَةً، أَحْلُمُ بِأَمِلٍ يُطارِدُني... أستيقظ للبحث عن خيوط الحنين وإِبَرِ الصَّبْرِ لأحاول من جديد.

مناورة

تُبعثر أوراقَها القديمةَ للمرة المائة بعد الألف، تَتَأَمَّلُها بِغَضَبٍ بينما تَمْسَحُ عنها أَدْرانَ الغَدْر، تُشعل النارَ في ماضٍ أَحْرَقَها، تَذَرُ الرمادَ على قلبها بينما تتلو عليه تعويذةً تُحَصِّنُهُ من ارتكاب حماقة جديدة، تُعَلِّقُ فوق نوافذ الرُّوْحِ تمائمَ ذاتَ نقوشٍ لها رسم الوجع، تَرْتِقُ كل ثَقْبٍ تَلْمَحُهُ عينُها تَحَسُّبًا لمرور أي خَيْبَةٍ مُحْتَمَلةٍ، يغشى قلبَها وَهَجُ عينين تَتَلَصَّصان، تُلْقِي بتمائمها في النار وهي تُرَدِّدُ: "كَذَبَ المُنَجِّمُوْنَ ولو صَدَقوا"!

مُسَكِّنْ

اسْتَيْقَظَتْ إِثْرَ نَوْبَةِ صُداعٍ نِصْفِيّ، قَرَّرَتْ صُنْعَ فِنْجان من القهوة، أعدَّتها بالكثير من الشوق، طيَّبتها بحبات الحنين، زَحَفَ الصُّداعُ إلى النصف الآخر من قلبها؛ أَشْفَقَتْ عليها ذاكرتُها، فاستدعت لها طَيْفَهُ، شَرِبَ الفِنْجان؛ فاعتدل مزاجُها.

مُشاغَبة

بناتُ أفكاري المشاغباتُ صِرْنَ مُوْلَعاتُ باللَعِب، يتسللن إلى عقلي طوال الليل، يوقظن شَغَفِي بالحرف، يحرمنني هَدْأَةَ النوم، فإذا تَنَفَّسَ الصُّبْحُ تناهى إلى سمعي أصواتُهن الممزوجةُ بالضَّحِكات: "لقد اخْتَبَأْنا.. هل تستطيعين إيجادَنا؟!".

خَدِيعة

انْزَعَجَ الأسدُ من انقطاع القرد -شاعر بلاطه- عن زيارته، وَاسْتاءَ كثيرا من كَمِّ الكراهية التي أصبح الجميعُ يَكِنُّها له منذ أن الْتَهَمَ الفيلَ العجوز، جَمَعَ مستشاريه؛ لم يُقْنِعْهُ سوى رأي الثعلبِ الذي كان يقضي بِصُنْعِ دواءٍ عجيب وَرِثَ تركيبتَه عن جده، إذا أُلقي في الماء وشربته الحيوانات فإنهم سيفقدون الذاكرة؛ أشار الأسد بالموافقة وأمر بسرعة التنفيذ، في الصباح كانت المفاجأة.

هروب

اليوم شَرَعْتُ في كتابة نص جديد عن أسرة كانت تَنْعَمُ بالسعادة، حتى لَمَعَ بَرِيْقُ عَيْنَيْ عِشْرِيْنِيَّةٍ بين السطور، لم تستطع الزوجةُ الأربعينيةُ منافستَه ولم يتمكن الزوجُ الخمسينيُّ من المقاومة.. صار قلمي يَتَعَثَّرُ في مشاكلهم كلما انتقلتُ لجملة جديدة، وكنت أضطر لتجفيف يدي بعد كل سطر؛ فدموع الكلمات لم تكن تتوقف، وحين آلمني ما آل إليه حال الأبطال؛ قررتُ أن أُنْهِيَ ما بدأتُه وأتركَ باب النص مفتوحا.. عُدْتُ بعد دقائق لأُعِيْدَ قراءتَه.. لم أجد أحدا؛ لقد هَرَبوا جميعا!

غِياب

عَبَثًا حاول الأطباء مُداواةَ عينيها من رَمَدٍ لا يتوقف إفرازُه، وَحْدَها العجوزُ على قارعة الطريق كانت محقة حين أخبرتها أنه لن يُطَيِّبَهُما سوى كُحْلِ اللقاء!

تواطؤ

قررتُ أن أنسى؛ أحرقتُ كُلَّ الصور، شَنَقْتُ الحنينَ بحبال الأَلَم، أَجْهَضْتُ الشَّوْقَ عَمْدًا ورَجَوْتُ من قلبي الغُفْران، رسمتُ عالما جديدا لا يَسْكُنُهُ سواي، كاد هذا أن ينجح لولا أنكَ رشوتَ ذاكرتي ذات يوم بفِنْجان قهوة وباقةِ ورد.

حَظّ

بَدَوْتُ كَمَلِكَةٍ بعد أن أَلْبَسَنِي فُستانا من الساتان الأحمر ووضع فوق شعري طَوْقًا فِضِّيَّ اللون، كنتُ على بُعْدِ عدة كلمات من تحقيق حُلمي بلقاءِ بطلِ الرواية، لولا أن سَقَطَ رمادُ سيجارةٍ فوق الورق.

هَمْسة

كانت باردةً جدا حين فتحتُها، ممتلئةً بملابسَ سوداء، أعرف أنه يحب هذا اللون حين أرتديه، يَهْمِسُ في أذني: "زاد اللونُ الأسودُ إجلالًا وجمالًا حين لامسَ جسدَك!"..

أبتسم بِخَجَل.. تَقْفِزُ دَمْعَةٌ من عيني وأنا أرى توافدَ المُعَزِّين.

انتظار

ذات وَحْدَة التقيا، متشابهين حد التوحد، تطايرت خصلات جنونه فرحًا وهو يجد هُوِيَّتَهُ الضائعة، بينما غَفَتْ هي على ساعد الحُلْم، تنتظر فرحةً بعُمْرٍ وردةٍ نَدِيَّةٍ أهداها إياها، تَوَسَّدَتْ الصَّبْرَ، ذَبُلَتْ الوردة، خَبَتْ رِعْشَةٌ كانت تعتريها كلما ذُكر اسمه، جاءها بعد زمن، لم تنتبه لعودته، كانت تَزْفِرُ آخر شَهْقَةِ أمل حُزْنًا على شَغَفٍ تَسَلَّلَ دون وداع!

إحباط

ذات يوم خِلْتُ أن أعين القدر غافلةٌ عني، أمسكتُ حِفْنَةً من السعادة، أودعتُها صندوقا أنيقا، ضَمَّخْتُهُ بِعِطْرِ ذاكرتي، ثم أَغْلَقْتُه بإحكام، داهَمَني الوَجَعُ على حين غِرَّة، هَرَعْتُ إلي صندوقي.. فتحتُه؛ كان فارغا تماما! تَبًّا؛ كيف لم أنتبه لوجود هذه الشروخ من قبل؟!

عِفَّة

أصابه الهُزال، أعلن أمام الجميع إضرابَه عن الطعام احتجاجًا على الأوضاع الاقتصادية للبلاد، في المساء كان يبكي وهو يَنْبُشُ خِلْسَةً أكوامَ القمامة!

حُبّ

الغَيْمَةُ التي عَشِقَتْهُ منذ زمن، شاهدتْه ينحني اليوم ليقبّل يد حبيبته؛ ظلت تبكي حتى تلاشت.

حنين

الجوُّ الليلةَ باردٌ جدًّا، دَثَّرْتُ نفسي جيدًا، أشعلتُ المِدْفَأَة، لم تنجح شمعاتُها في بث الدِّفْءِ بداخلي، تسللتْ البرودةُ إلى قلبي، كاد يتجمد؛ لجأتُ لحيلة قديمة؛ أشعلتُ أَتُوْنَ الذكريات، ألقيتُ فيه لَيْلِي المُرْتَجِفَ، ازداد توهجُّه، اختطفني الحنين، لا أدري كم من الوقت مضى وأنا لديه، ولا كيف استطعتُ الهَرَبَ من أَسْرِه، كل ما أعرفه أن ثَمَّةَ دِفْئًا صاريملأُ المكان!

حَيْرَة

أذكر أنني كَبِرْتُ مائةَ عامٍ دُفْعَةً واحدةً حين لَوَّحْتُ بيدي لِأُوَدِّعَ أحدَهم، ثم مائةً ثانية بعد أول طَعْنةِ غَدْرٍ، تَلَتْها مائةٌ جديدة حين أَجْهَضْتُ حُلمي الأول وعندما سقطتْ أمامي بعضُ الأَقْنِعةِ وحين قتلتْني خناجرُ أفواههم.

ما هذا التاريخُ المُدَوَّنُ في شَهادةِ ميلادي إذن؟!

حُرِّيَّة

بقلمي رَسَمْتُ عُصفورا جميلَ الألوانِ حُرًّا يُرَفْرِفُ عاليًا بجَناحيه، لا قَفَصَ يحبسُه ولا حُزْنَ يقيّدُه، تأمّلتُه طويلا.. مَلَأَ تغريدُه أذني.

أمْنِيَّة

أحاولُ الوقوفَ على أطرافِ أصابعي لِأَحْصُلَ على ثَمَرَةِ البرتقالِ المُتَدَلِّيةِ من الشجرة وحين أَعْجَزُ عن لَمْسِها أَلْتَفِتُ لأمي في ضَيْق، وأسألُها: "متى سَأَكْبَرُ يا أمي؟!".

تُغْريني فاتريناتُ الأحذيةِ النسائيةِ بكعوبِها العاليةِ وأشكالِها الجذّابة، أَعْرِفُ أنهم لن يسمحوا لي بارتدائِها الآن، وسيقولون لي: أنني ما زِلْتُ صغيرةً... أرفع رأسي للسماء: "متى سَأَكْبَرُ يا الله؟!".

ألا يُمْكِنُ أن تُعيدَنا الحياةُ صغارًا، ثم تنسانا؟!

فوْضى

اعتدتُ منذ زمن أن أَرُصَّ أحزاني وأفراحي فوق بعضها داخلَ زاويةٍ خاصةٍ بذاكرتي، لم أسألْ نفسي يوما: لماذا أحتفظُ بالمواقفِ المؤلِمة إلا حين أردتُ وضع كيسِ سعادةٍ جديدٍ ولم أَجِدْ مكانًا صغيرًا أَحْشُرُهُ فيه؛ قَرَّرْتُ حينها أن أتخلصَ من أحزاني للأبد، وما إن مددتُ يدي إليها انهالتْ عَلَيَّ الأكياسُ المُكَدَّسَةُ بعشوائية؛ مَرَّةً ثانيةً عَمَّتْ الفَوْضى عقلي.

نِسْيان

عاد بعد زمن، اتَّهمني أنَّ ذاكرتي مثقوبةٌ تتسرّبُ منها فقط لحظاتُ سعادتي معه، عَجَبًا.. كيف نَسِيَ أنه رَحَلَ بعد أن شَجَّ رأسي؟!

ذات ظلمة

اصْطَكَّ حَرْفُهُ التائِهُ بِحَرْفِها الضَّرير، أشعلا شرارة... أَوْقَدَتْ قِنديلا، اهتدى حرفُه وارتد حرفُها بصيرا.

توافق

أَصَرَّتْ الخادمةُ على حضور الحَفْلِ الذي سَيُقيمُهُ الأمير، بعد أن ابتاعتْ بكل ما تَمْلِكُهُ فستانا وحذاء؛ حين لَمَحَها دَقَّ قلبُه، راقَصَها حتى انتصف الليل، خُيِّلَ إليها أنه سيبحثُ عنها إن غادرتْه، رَحَلتْ تاركةً حذاءَها عَمْدًا، بعد أشهر أَخْبَرَنِيْ عاملُ القمامةِ أنه سيتزوجُ الفتاةَ التي تَجَشَّمَ عناءَ البحثِ عنها ليُسَلِّمَها الحذاء.

الفهرس

الإهداء	٥
شكروعرفان	٧
رائحة الورد	٩
بطن البقرة	١٣
رسالة	١٩
أنستازيا	٢٣
جريمة	٣١
كاتب	٣٥
وحدة	٣٩
ضابط إيقاع	٤١
خيال مآته	٤٧
أحلام العودة	٥١
زهرة	٥٥

خيال	٥٩
نبض الحب	٦٣
الرحلة(SU - 2425)	٦٧
حياة	٧٣
النَّدَّاهة	٧٧
فتنة	٨٣
قصص قصيرة جدا	٨٥
البحث عن حلم	٨٧
زيف	٨٨
فنانة	٨٩
شهرزاد	٩٠
زوجة (١)	٩١
قدر	٩٢
مفاجأة	٩٣

ورطة	٩٤
لغة	٩٥
قتل عمد	٩٦
وحيد	٩٧
قصيدة	٩٨
ناشر	٩٩
جارح	١٠٠
جحود	١٠١
خوف	١٠٢
أمان	١٠٣
سجينة	١٠٤
معجزة	١٠٥
وحيدة	١٠٦
شظية	١٠٧

غيرة	١٠٨
مفارقة	١٠٩
زوجة (٢)	١١٠
تعلق	١١١
بالون	١١٢
خيبة	١١٣
اغتيال	١١٤
هذا المساء	١١٥
مناورة	١١٦
مسكن	١١٧
مشاغبة	١١٨
خديعة	١١٩
هروب	١٢٠
غياب	١٢١

تواطؤ	١٢٢
حظ	١٢٣
همسة	١٢٤
انتظار	١٢٥
إحباط	١٢٦
عفة	١٢٧
حب	١٢٨
حنين	١٢٩
حيرة	١٣٠
حرية	١٣١
أمنية	١٣٢
فوضى	١٣٣

نسيان	١٣٤
ذات ظلمة	١٣٥
توافق	١٣٦
الفهرس	١٣٧
رسالتنا	١٤٣

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذو جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017